BOBST LIBRARY
3 1142 02771 8413

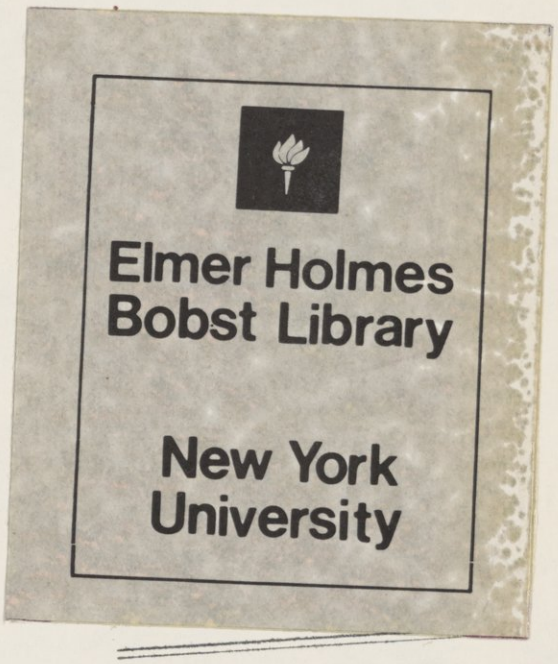

al-Istānbūlī, Mahmūd Mahdī
/Ḥiwār bayna al-falāsifah/

بسم الله الرحمن الرحيم

خيل إليّ انه اجتمع فريق من المفكرين لمعالجة القضية الخلقية في البلاد بعد ما شعروا بفسادها وانهيار جميع المثل العليا الوضعية، وقد كانوا يختلفون في نزعاتهم ومذاهبهم، فقر رأيهم على دراسة موضوع تأسيس الأخلاق على أسس متينة لعلهم يخلصون منها إلى تحقيق «المدينة الفاضلة» أمل الفلاسفة وانقاذ الإنسانية من الفوضى الخلقية التي تقودها إلى الهاوية.

فاتفقوا على أن يبدي كل منهم نظريته حتى يتوصلوا إلى أفضل مذهب. وقد توليت بنفسي هذه الندوة الخلقية أفند آراء هؤلاء المفكرين حتى نحظى بالحقيقة الناصعة ضالة الجميع ونصل إلى ساحل السلامة والمنعة والسعادة.

وسنجد من خلال دراسة هذا الموضوع مبلغ خطر كثير من هذه النظريات التي تدرّس لطلابنا في المدارس الثانوية والعالية دون تمحيص ولا توجيه، فيترك لكل منهم حرية اختيار ما يرى ويشتهي ويهوى، مما أدى إلى اضطراب أفكارهم وتشكيكهم بقدسية القيم السامية للسلوك وانحرافهم في تيار الشهوات والابتعاد عن الصراط المستقيم، الأمر الذي سبب بلبلة الحياة الخلقية والاجتماعية وفسادها. وهذا ما أراده المستعمر حين وضع هذه المناهج في بلادنا والتي لا نزال نتمسك بها كأقدس تراث!

ومن المستغرب أن يعتبر بعض أساتذة الفلسفة أنه كان ولا يزال لهذه المذاهب الفلسفية في تأسيس الأخلاق شأن كبير في ازدهار الأخلاق وتقدمها وانها نور تستضيء به الانسانية!...

وهذا الرأي سخف وهراء!

N.Y.U. LIBRARIES

« إن صلة الفلسفة بالدين ، وصلة الفلسفة الاغريقية — خاصة — بالحضارة الحديثة مسألة أحب أن أقلبها على وجوهها .

ولعل ذوي البصيرة بالتاريخ يساعدوننا على استبانة الصواب .

إن اشتباك الفلسفة بتعاليم الدين ، هو في نظري ضرب من لبس (الحق) المقطوع به (بالظن) الحائر المضطرب .

وكما نجح العلم الطبيعي ودنت ثماره بهجر الفلسفة ومناهجها ، فكذلك يجب أن يسير الدين بعيداً عن الفلسفة الحائرة ، وما تضمنته هذه الفلسفة من أوهام وخبط ، من فلاسفة الاغريق إلى أن العالم محاط بغلاف من النيران الملتهبة وان الشمس والنجوم التي تتألق ليلاً ، ليست إلا ثقوباً في هذا المحيط الناري !

ومنهم من جعل الكون مخلوقاً من عناصر معينة هي الهواء والماء ، ومنهم ، ومنهم !

وليس المهم ان هذا حق أو خرافة ، وانما المهم منهج التفكير الذي يتمخض عن هذه النتائج .

انه منهج سقيم ، إنه ضرب من اللغو أو اللهو كما ترى .

فلما قام في العالم المنطق التجريبي والرياضي ، تحققت الوسائل التي يطلب بها الحق ، وظفر علماء الكون والحياة بمعارف رائعة .

وبهذه طردت الفلسفة طرداً من هذا الميدان !!

فإن كانت أساليب الفلسفة كلها واحدة في تعرف الحقائق ، فأي معنى لاحترام الفلسفة ، أو التعويل على النتائج التي تعطيها ؟؟

إن الدين ثروة من الأحكام ، نقلها المعصوم عن رب العالمين ، في مجال لا اجتهاد فيه لبشر ، ولا مكان فيه للظن .

فإذا تحدث هذا الإله عن نفسه ، وعن صفاته ، وعن شرائعه التي ارتضاها لعباده ، فمن السخف أن نخلط هذا الحديث بتخيلات رجل يعتزل في ناحية ثم يقول : ان الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وإن مصدر الوجود تولدت عنه عقول ثمانية وأفلاك سبعة !!

Near East
BJ
37
I7
c.1

أو أن هناك عالماً من المثل تلتقي عندها نماذج الخير والشر إلى آخر ما تضمنت الفلسفة من شطحات وأخطاء .

إن إلزام أهل الدين بسماع هذا الهراء ، كالزام أهل العلم بقبول كلام « أنا كسيمندر » و « أنا كسمين » في خلق العالم من ماء أو من خمر ؟! ..

إن الفكر الأوربي لم يتحرر ولم يستطع السير إلى الأمام ، إلا بعد أن رمى في ازدراء آثار الفلسفة الاغريقية الأولى ..

بل إن أنفس ما في هـذه الفلسفة ، وهو منطق « أرسطو » لم ينج من قدح أساطين النهضة الحديثة .

فعدّه « ستورات ميل » أداة جدل عقيم ، أو وسيلة لتنظيم معلومات موجودة .

أما الآتيان بجديد نافع فله منطق آخر ، يقوم على دراسة كتاب الكون المفتوح « أي الاتصال المباشر بالطبيعة والحياة (١) » .

وهذا ما دعا الإسلام إليـــه بمثل قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »

ومن قبل نقده شيخ الإسلام العلامة ابن تيمية في كتابه نقد المنطق .

وإن كثيراً منهم بهرتهم المدنية الغربية وظنوا الخير فيها كلها ، مع أنها تحتوي على الجد والمجنون واللباب والقشور ، فواجب أسرة التعليم التمييز بين النافع والضار ونقل ما نحن بحاجة إليه ، وإلا كان تدريسهم — كما هي الحال الآن — خطراً على سلامة الأخلاق والحضارة . وأغلب الجيـــل المتخرج على أيديهم أكبر دليل على ما نقول !!

هذا ونحن نعلم أن المذاهب الفلسفية قامت — أو بعثت من جديد — لتحارب

---

(١) ظلام من الغرب للأستاذ محمد الغزالي ٢٥١ بشيء من التصرف والإيجاز .

الكنيسة في أوربا بعد ما وجد المصلحون مبادئها بعيدة عن العقل ولم تعد تتفق مع الحياة ، وقد سببت تأخر المدنية قروناً عدة في العصور الوسطى ، وبعد ما لمسوه من رجالها وقتئذ ، فقد كانوا دوماً في صفوف الملوك الظالمين والطبقات الرأسمالية !

وهذه الحرب ضد الكنيسة انتقلت من ميدان الغرب إلى ميدان الشرق ظلماً وعدواناً وجهلاً وزوراً بسبب جهل بعض الطبقات المثقفة التي تلقت العلم في الغرب ، على الرغم من اختلاف مبادئ الدينين ، وعلى الرغم من شهادات كثير من علماء الغرب بعظمة الإسلام وصلاحه لكل زمان ومكان في مؤتمر لاهاي عام ١٩٣٧ . كما شهد غيرهم بفضل الاسلام على المدنية الحديثة .

ومن سوء حظ العالم العربي الإسلامي ان كثيراً من القادة الذين يحكمونه هم ممن تشبعوا بهذه الفكرة الآثيمة الخاطئة أو نشؤوا في أحضان الغرب الذي يحارب دينه للأسباب السابقة ، فأخذوا يقودون سفينة البلاد إلى هاوية الهلاك .

* * *

والتبعة تقع في الدرجة الأولى على وزارات التربية والتعليم التي تقدم هذه السموم إلى الطلاب قبل أن تزودهم بثقافة عربية اسلامية تجعلهم في منعة من الانحراف في تيارات هذه المذاهب واعجاب كل ذي رأي برأيه وتمسكه بالنظرية التي راقت له .

والعجيب أن يعيد التاريخ نفسه في أسلوب هدم مجد العروبة والإسلام عن طريق السفسطات الفلسفية التي يسمونها علم الأخلاق . فإن هذا المجد في القديم ما انهار إلا بعد تسرب بعض آراء الفلاسفة الذين سببوا اختلاف العرب والمسلمين وانقسامهم إلى شيع وفرق ينازع بعضهم بعضاً ويستسلم للإلحاد والاباحية ، مما جعلهم لقمة سائغة للأعداء ! فهل من معتبر ؟ !

قد يقول معترض : وهل تود أن نبقى بدون دراسة فلسفة ؟ !

للإجابة عن هذا السؤال أنقل آراء بعض المفكرين :

قال العلامة أحمد زكي :

«ان العلم لم يبق منها - أي الفلسفة - إلا ذلك الجانب ، جانب ما وراء الطبيعة

ـ وفيه تشيع معان أخرى قوامها ـ فلسفة الحدس والتخمين ، يدورون فيها ما يدورون ـ يعني الفلسفة ـ ولا يقر علماء الطبيعة أنهم يجيئون بشيء ينفع أحداً . . »

ويعلق الأستاذ محمد الغزالي على قول العليم بقوله :

« وهذا صحيح ، وخير للمسلمين ، وللعالم كله أن يهمل هذا الضرب من التفكير الفلسفي ، وأن نمنع تسلطه على الإسلام . . .

إن للعلم كلمته المسموعة في ميدان الطبيعة . . .

أما في العقائد والعبادات ، والأحكام والأخلاق ، فإن للدين كلمته التي ينبغي أن نصيخ إليها في خشوع .

ولن يكون هناك خلاف ـ ألبتة ـ بين داعي العلم وداعي الدين ، لأن كليهما إذا صح ينبجس من معين الحقيقة الواحدة في الأرض والسماء » .

ويقول الأستاذ الغزالي قبل هذا الكلام :

« إن المنهج العلمي الحديث ضيق دائرة الفكر الفلسفي بعد ما جعل عمدته في استكشاف الحقائق منطق التجربة والملاحظة والاستقراء .

ان الفلسفة في المجالات الباقية أصبحت كالشعر الحالم ، يهيم في كل واحد ، ثم يعود من تجواله بعاطفة خاصة أو خيال مستلطف [1] » .

أجيب بعد ذلك عن سؤال المعترض :

إذا كان لا بد من الفلسفة فيجب أن نأخذها من الإسلام ـ من مصدريه الوحيدين القرآن والسنة الصحيحة ـ لا من أكثر فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وغيرها . فإن فلسفة الإسلام الصحيحة هي التي جعلتنا خير أمة أخرجت للناس وانطلقت بنا في ميادين العلم والحضارة .

يروي لنا التاريخ أن بعض ملوك العباسيين أرسل إلى ملك الروم يطلب منه إرسال كتبه الفلسفية لترجمتها إلى العربية ، فجمع علماء بلاده لاستشارتهم في الموضوع ،

---

(١) ظلام من الغرب ٢٤٧ و ٢٤٨ .

فرفض بعضهم ارسال هذه الكتب . وحبذ بعضهم الآخر إرسالها قائلاً : ينبغي ارسال هذه الفلسفة إليهم ، فإنها ما شاعت بين أمة إلا فرقتها شيعاً وأحزابا ! !

لذا كان من الواجب تدريس هذه النظريات والأخلاق إذا كان لا بد من تدريسها بأسلوب انتقادي تهكمي كما تستحق ، والخلاص منها بالإشادة بالنظرية الدينية لتأسيس الأخلاق التي أثبتت جهدي ودون تكلف على انها النظرية الحقة التي لا غنى عنها للعالم بشهادة كبار الفلاسفة والعلماء ، والله تعالى أسأل أن يجعل في عملي النفع والثواب .

دمشق : محمود مهدي الاستانبولي

ملاحظة :

لقد اقتصر دوري في هذا الكتاب غالباً على نقل النظريات الفلسفية من الكتب ودفاتر الأخلاق القديمة والحديثة التي تدرس لطلاب الشهادة الثانوية فانتقيت منها ولخصت هذه النظريات والردود عليها وهي مترجمة ومشاعة وأضفت إليها إضافات كثيرة ضرورية .

وهذه هي أهم الكتب المصادر التي نقلت عنها :

مبادىء الأخلاق للعليم خالد شاتيلا « غير مطبوع » ، علم الاخلاق للعليم كامل عياد ، مبادىء الاخلاق للأستاذ حافظ الجمالي ، مبادىء الاخلاق للاستاذ عبد السلام العبسي .

نظرية اللذة

أنصار نظرية اللذة : إننا نرى أن السعادة هي الخير الأسمى ، وانه يجب على الإنسان أن يسعى لتحقيق هـذه السعادة لنفسه ما استطاع إليها سبيلا ، وان ذلك لا يكون بازدراء الحياة والانقطاع إلى عيشة الزهد والحرمان بل عن طريق الاستمتاع بالملذات الحسية .

فاللذة حسب رأينا هي القانون الطبيعي للحياة ، سواء لدى الحيوان أو الانسان ، لأن غرائزنا وميولنا الطبيعية تدفعنا إليها .

لذا فإن القوانين الخلقية التي تعارض هذا المبدأ ليست سوى تقاليد وعقائد فاسدة تخالف الطبيعة وتناقض الحرية والسعادة . يقول أبيقور : ان كل الفضائل مجتمعة لا تساوي دانقاً من نحاس ، إذا نحن فضلناها على اللذة !

إن الإنسان يجهل ماذا ينتظره في الغد ، ولذلك يجب أن يقتنص اللذات حيثما وكيفما وجدها . إلا أنه ينبغي له ككائن عاقل أن يجتنب الملذات التي ليست مأمونة العواقب والتي يمكن أن تسبب له آلاماً أكبر منها .

من الضروري أن يوازن الحكيم في كل عمل بين اللذة العاجلة ، والألم الآجل ، وأن ينظم حياته بصورة تؤمن له أكبر قسط ممكن من السعادة ، وهـذا يتطلب تفضيل المسرات المستمرة على اللذات الوقتية .

مناقشة نظرية اللذة

الناقد : إن هذه النظرية تخلط بين القيم الأخلاقية ، وقيم السعادة التي تختلف عنها في طبيعتها ، ويناقض بعضها بعضاً .

فاللذة يمكن أن تكون خلقية وغير خلقية حسب مطابقتها أو عدم مطابقتها للقانون الأخلاقي ، وهي لا يمكن أن تكون في ذاتها خيراً .

وإذا كان حقاً ان الانسان يشعر بدافع إلى اللذة وإلى السعادة فلا شك أيضاً في أنه قبل كل شيء شخص خلقي ، يشعر بضرورة السعي نحو الكمال والفضيلة ، وكما أن ذلك الدافع طبيعي ، كذلك هذا الميل موجود فيه من الطبيعة .

وليس صحيحاً ما يدعيه أصحاب نظرية اللذة انها هي الغاية الفعالية الحيوية ، وان الميول الطبيعية تدفع إليها .

وكشف أرسطو عن الخطأ الأساسي في هـــذا المبدأ إذ قال : « إنه لو كانت اللذة غاية الحياة لـكان من الضروري أن تزول الحاجات والرغبات عنـدما نتوصل إلى إشباعها .

ولكن نرى بالعكس أننا لا نكاد ننتهي من الاستمتاع بلذة حتى يتجدد الميل والرغبة ، مما يدل على أن اللذة ليست بذاتها غاية الفعالية الحيوية ، بل إنما هي ظاهرة ترافقها وتقوم بوظيفة المنبه والمرشد والمحرض .

فنحن نخالف لذلك القانون الطبيعي نفسه إذا جعلنا الفعالية خاضعة للسعي وراء اللذة كهدف ذاتي » .

ثم ان الانسان ليس حيواناً فحسب بل أكثر من ذلك ، فلا يجوز أن ينقاد للقوانين الخاصة بالحيوانات ! .

وما عدا ذلك فاللذة من طبيعتها أن تقضي على السعادة نفسها ، التي يريد أصحاب هذه النظرية إرجاعها إلى اللذة ، كما أنها تقضي على الأخلاق ؛ فإن استخدام الفعالية للتفتيش عن اللذة مما يتعارض مع القوانين الحيوية التي نراها تحرم الانسان السعادة عندما يسعى إليها عن طريق اللذة ، وذلك لأنها دائمـــاً تعقب اللذات بالآلام وتؤدي بطالب اللذة في النتيجة إلى التشاؤم كما يظهر لنا من مثال هيجسياس القورينائي الذي كان يدعو إلى الانتحار بسبب ما رآه من تغلب الآلام على اللذات في الحياة حتى لقب باسم « محامي الموت » وقد أصاب (لوكرس) في قوله بأن الانهماك في الملذات والشهوات يؤدي إلى الملل والاشمئزاز منها .

وكذلك يمكن أن يعتبر (دون جوان) رمزاً أبدياً للشخص الذي لا يمكنه أن يتوصل إلى اشباع حاجة اللذة فينتهي إلى الشقاء .

(هذا ولا يمكن تأسيس أخلاق عامة مشتركة بين الجميع على اللذات التي تختلف بالكيفية من شخص إلى آخر كما تختلف لدى الشخص نفسه حسب الظروف ، ثم أنه ليس من الممكن أن نقارب كل اللذات بعضها مع بعض ، لأن قيمة كل واحدة منها متعلقة بالميل الذي تنتج من تطبيقه .

ان اللذة لاقرار لها ، فكلما بلغت لذة ما ، شعرت بأنك لم تجد فيها شافياً ، فتطلب لذة أكبر منها وهكذا فان هذا الاحتياج إلى اللذة يولد ألماً من جهة ، ويدعو إلى الاباحية واللا أخلاقية من جهة ثانية .

إن هناك لذات سامية خلقية ، وأخرى غير خلقية خسيسة ، فكيف بأصحاب هذا المذهب يدعون إلى اللا أخلاقية والشر ، فالتمادي بالأكل واللذة والانغماس في في الشهوات الجنسية وشرب الخمور وتعاطي الميسر كلها أمور فيها لذة ولكنها لذة غير خلقية تؤدي إلى الذم والاسف وفقدان الاحترام .

ـ ان البحث عن اللذة كهدف يغري الانسان ويوقظ فيه الشهوات واللذات الجسدية على الاخص ، ولو كانت تخشى رقابة العقل ، لانها تحمل في ذاتها الضعف والفساد ، والبرهان على ذلك ما آل إليه مذهب أبيقور مع مرور الزمن إذ انحرف الناس عن أهدافه وقواعده كما حصل مع الرومان ...

النظرية النفعية الشخصية

أنصار النظرية النفعية الشخصية : إننا قائمون بتعذر تأسيس الا خلاق على اللذة ونرى تأسيسها على المنفعة الشخصية .

يرى الفيلسوف سبينوزا أن الخير الأسمى في المنفعة الشخصية ، ولو أنه فهم هذه المنفعة بصورة أوسع وأسمى على الأهواء مما ذهب إليه بعض فلاسفة اللذة ، فهو

يدعو إلى السيطرة على الاهواء وحسن استخدامها ويطلب اجتناب الاهواء والتي تعقبها الآلام والأحزان . . .

إن النظريات الاخلاقية النفعية تبتدىء بانتقاد مذهب اللذة الذي تصفه بالابتعاد عن العقل والشجاعة وتتهمه بالسعي وراء كل اللذات واجتناب جميع الآلام دون التمييز بين النافع وغير النافع منها .

ومعنى ذلك أن هذه النظرية تريد تقدير أعمالنا حسب نتائجها ، وإخضاع الاهواء لسلطان العقل الذي يحكم على نفعها أو ضررها ، وهي تتمسك بكثير من المفاهيم الخلقية التي أهملها أتباع مذهب اللذة المحضة ، مثل التضحية والواجب والفضيلة ، إلا أنها تقصد بالتضحية الابتعاد عن الملذات المضرة واحتمال الآلام المفيدة ، وتدعو إلى الفضائل المفيدة للفرد مثل الاعتدال والشجاعة ، والسيطرة على النفس والاجتهاد والاقتصاد ، وإطاعة القوانين المدنية ، كما أنها تفرض علينا من الواجب الشخصية والاجتماعية ما يؤدي إلى تأمين منافعنا الشخصية .

ان نظريتنا النفعية ترجع مبدأ الاخلاق إلى الميل الغريزي الذي يدفع الانسان إلى السعي وراء منفعته الخاصة ، ولذلك لا حاجة إلى أن نفرض على الانسان هذا السعي كواجب .

مناقشة النفعية النظرية الخاصة

الناقد : لا شك في أن هذه النظرية ـ النفعية الشخصية ـ لا تزال بعيدة كل البعد عن الاخلاق الحقيقية ، ولا يمكن تأسيس الاخلاق عليها .

فهي تخطىء في اعتبارها الانسان كشخص لا يسعى إلا وراء منفعته ، وتنسى بأن وجدانه كثيراً ما يدفعه إلى التضحية بكل منفعة ، بل حتى بحياته في سبيل القيم الخلقية التي يعتقدها.

ثم إن السعي وراء المنفعة الشخصية ليس في حد ذاته شيئاً أخلاقياً أو غير أخلاقي ، بل يمكن أن يتصف بإحدى هاتين الصفتين حسب مطابقته أو مخالفته للقانون الخلقي ، ولذلك فإن الواجب والفضائل والتضحيات التي تفرضها هذه النظرية

لا يجوز أن تعتبر أخلاقية بذاتها ، لأنها إنما يطلب القيام بها كأخف الشرين ، فهي إذن نتيجة حسابات تدل على الذكاء فقط .

ويمكن لأجل أن نعرف مستوى الأخلاق التي يدعو إليها النفعيون أن نتذكر قول أبيقور بأن « كل الفضائل لا قيمة لها بدون اللذة » .

وعدا ذلك ، فإن هذه النظرية تؤدي إلى النسبية ، لأنها تترك إلى كل فرد الاختيار في تقدير منافعه الخاصة و كيفية اشباعها ، وفي تعيين مثله الاعلى ، فيسعى الواحد إلى السيطرة والأخر إلى الثروة وغيره إلى الجاه ، وهذا بعيد عن القانون الأخلاقي الذي يجب أن يكون عاماً .

ومن جهة أخرى ، ألا نعرّض الأخلاق إلى الخطر حينما نقول للإنسان : إن الأعمال الأخلاقية ترجع بالأصل إلى الفردية ؟!

النظرية النفعية العامة

انصار النظرية النفعية العامة : لا شك ان النظرية النفعية الخاصة عاجزة عن تأسيس الأخلاق عليها ، فينبغي الاستعانة بالنظرية النفعية العامة لتأسيس هذه الأخلاق .

لقد اعتبر قسم من الفلاسفة النفعيين مثل ابيقور وهوبس وماندويل ولاروشفوكولد وفولتير وسبينوزا وبنتام المنفعة الخاصة أساساً للأخلاق واقتصروا على القول بأنه ينبغي للفرد القيام بالواجب الاجتماعية أيضاً في سبيل منفعته الخاصة ، ويرى قسم آخر وفي مقدمته اوغوست كونت وستوارت ميل وموراس تأسيس الأخلاق على مبدإ المنفعة العامة والسعادة الاجتماعية .

ويعتبر هؤلاء الفلاسفة المنفعة العامة هي الخير الاسمى ، فينسبون إليها قيمة مطلقة ، ويطلبون ويفرضون على الافراد الخضوع لها ، والتضحية بكل منفعة خاصة في سبيلها إذا اقتضى الامر .

الناقد : أرجو أن تشرحوا لي رأي ستوارت ميل أحد القائلين بنظرية النفعية العامة .

أنصار هذه النظرية : يرى (استوارت ميل) بأنه يجب علينا لاجل الحكم على قيمة (اللذات) أن نرجع إلى رأي الاشخاص ذوي الصلاحية ، أي إلى الذين عرفوا بالتجربة جميع اللذات « اللطيفة والغليظة » ، وهو يدعي بأن هؤلاء الاشخاص متفقون على تفضيل اللذات التي تنشأ عن الانصراف إلى العلم والفن وبذل الجهود في سبيل سعادة أكبر عدد ممكن من البشر - أو بعبارة أخرى تلك التي يتجرد فيها الانسان عن الفردية ، يقول (ميل) : إذا أراد المرء أن يكون سعيداً فعليه أن يسعى وراء المنفعة العامة .

وقد ادعى (بنثام) أحد القائلين بالنظرية النفعية الفردية بأن المنفعة الخاصة والمنفعة العامة متلازمتان دون أن يأتي بالبرهان على ذلك ، وإنما اقتصر على القول بأن النحلة التي تعمل للخلية إنما تعمل في الوقت نفسه لنفسها ، وكذلك نحن إذا قمنا بوجائبنا تجاه المجتمع فإنما نخدم أنفسنا .

وهذا (سبنسر) يدعي بأن تقسيم العمل وما ينشأ عنه من تضامن ينتهي بالبشرية إلى حالة تسود فيها الحرية ضمن المساواة حتى يستطيع كل فرد أن يعمل على تطوره بحرية دون التعدي على حريه الآخرين وبذلك تنقلب الاثرة (الانانية) إلى غيرية محضة .

على أن (ستوارت ميل) قد حاول البرهان على وجود التوافق بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة بطريقة أخرى ، فقال بأن جميع الناس يخضعون لتأثير المجتمع ، وان المجتمع قد توصل بواسطة الاسرة والتربية المدرسية والعقائد الدينية وما وضعه من تقاليد والتزامات اجتماعية إلى جعل الافراد لا يفكرون في مفهوم الخير حتى يستدعي ذلك لديهم فكرة المنفعة العامة ، فالوجدان إنما يتألف من مجموع هذه الافكار المتداعية ، ويجب أن نلاحظ تأثير العادة في استقرار هذه الافكار عدا ان الفرد ينسى بحكم قانون الانتقال ان الوجائب الخلقية التي يتمسك بها لم تكن في الاصل من أوامر الوجدان ، بل أتت نتيجة تقاليد فرضها المجتمع في سبيل المصلحة العامة

وهذا ما يجعل القانون الخلقي في الظاهر مستقلاً يختلف عن مفهوم المنفعة ولكن الأمر ليس كذلك في الحقيقة ، بل إن ما يفرضه الوجدان من الوجائب لا يخرج عن كونه في بادىء الامر حسابات نفعية يتلقاها الفرد عن المجتمع ويسير بموجبها في حياته .

وهكذا يعتقد (ستوارت ميل) بأن الفرد لا بد له (في سبيل منفعته الخاصة ذاتها) من أن يسعى وراء المنفعة العامة سواء أكان ذلك عن معرفة أم مدفوعاً إليه من قبل الجماعة .

مناقشة نظرية ستوارت ميل

الناقد : إذا دققنا في نظرية (ستوارت ميل) وفكرنا في نتائجها من الوجهة العلمية فلا يسعنا إلا أن نتساءل : أليس هناك خطر كبير في أن نكشف للفرد عن مصدر القانون الخلقي بالطريقة التي تتبعها هذه النظرية ، فإن سلطة هذا القانون الخلقي انما تستند حسب تحليل ستوارت ميل إلى رأي الأشخاص ذوي الصلاحية أو إلى « نداعي الأفكار » الناشيء عن تأثير الأسرة والتربية أو إلى الحسابات التي قام بها المجتمع في جميع هذه الحالات ، فإذا قبلنا بهـذا الاساس ، فماذا يمنع الفرد من أن يحاول « عملية الحساب » بنفسه ويفحص فيما إذا كانت الوجائب الخلقية (التي يراها فرائض اجتماعية) هل هي حقاً صحيحة ومفيدة في الواقع أم لا ، وطبيعي ان الأفراد بهذا الفحص قد يتوصل أكثرهم إلى تفضيل ملذاتهم (الانانية) على التمسك بمثل أعلى ، لأنه ليس من السهل أن يفهم الجميع كيف تتم لاحدهم السعادة إذا هو ضحى بحياته في سبيل مبدإٍ سام .

ثم ان (ستوارت ميل) يريد الرجوع إلى رأي الناس (المجربين) ليثبت بأن المسرات اللطيفة السامية أفضل من المسرات الغليظة الحسيسة . ولكن اتفاق هؤلاء في ذلك دليل على وجود مثل أعلى قديم لا يزال يسيطر على وجدان كل منهم . وإذا رأينا (ستوارت ميل) يفضل أن يكون سقراط التعس على أن يكون خنزيراً سعيداً

فذلك إنما يدل على أنه مشبع بالمثل الاعلى في الحكمة (البعيد عن النظرية التي يقول بها) ولا نستطيع قبول رأي (ستوارت ميل) في أن المنفعة العامة هي التي يجب أن تكون معياراً للأخلاق لمجرد كونها تمثل منفعة الاكثرية ، فان كل المنافع سواء الشخصية منها أم العامة ، وهي لا تكون محقة إلا إذا كانت مطابقة للعدل الذي يحكم على الامور حسب المثل الاعلى ، ولا يميز بين حق الاكثرية الساحقة وحق الاقلية الضئيلة .

هذا وان المنفعه العامة والتي هي الخير الاسمى بنظر ميل ، لا تصح أن تكون معياراً للأخلاق لمجرد كونها تمثل منفعة الاكثرية ، فالعدل والخير الاسمى الصحيحان لا يسمحان بقتل البريء مهما يكن في هذا العمل من الفوائد العظيمة للمجتمع ، كما ان جعل المنفعة العامة هي الخير الاسمي هو عمل يبطل القيود الخلقية ويقيم مكانها المنافسة الاقتصادية وحدها .

وبعد هذا أرجو أن تشرحوا لي نظرية الفيلسوف (بيلو) في النفعية الحديثة .

أنصار نظرية المنفعة العامة : يقول (بيلو) : إن العقل في الحقيقة يبين لنا بأن المجتمع هو الشرط الاول لتحقيق الغايات التي يسعى وراءها أفراد البشر مهما كان نوع هذه الغايات (سواء الرفاهية أو السعادة أو المعرفة أو الفن أو الدين الخ ..) وهكذا لما كان المجتمع هو الوسيلة الضرورية للوصول إلى أية غاية كانت في خدمة المجتمع فإنه يصبح الهدف الاول ، ولذلك فإن الاخلاق لا بد أن تشترط السعي وراء المنفعة لهذا المجتمع الذي يتوقف على وجود جميع الاهداف البشرية .

وكذلك التجربة تؤيد هذه الحقيقة العقلية وتثبت لنا بأن الاخلاق إنما تقوم على السعي وراء المنفعة العامة ، فإننا إذا درسنا تطور الحياة يظهر لنا حسب رأي (بيلو) بأن جميع الاوامر إنما كانت أعمالاً مفيدة للجميع ، وان كل عمل نافع للمجتمع كان بالمقابلة يصبح في نظر الناس أخلاقياً .

مناقشة النظرية النفعية العامة

الناقد : لقد أنكر علماء الاجتماع ، وفي مقدمتهم دوركايم ، انطباق هذه النظرية على التجربة الواقعية ، ذلك لان هناك كثيراً من الاعمال التي اعتبرها البشر أخلاقية دون أن يكون قد ظهر لهم نفعها أو ضررها مثل تحريم أكل بعض اللحوم . .

وأخيراً فإن بين الواجب الخلقية ما هو مضر بالفعل ، ونضرب لذلك تمسك الهنود بتحريم أكل لحوم البقر رغم تكرر القحط في بلادهم وموت الكثيرين منهم جوعاً .

ويمكن أن نوجه الى نظريه (بيلو) من الناحية النظرية اعتراضاً آخر أكثر خطورة فنقول لا شك في أن البيئة الاجتماعية وسيلة لا غنى عنها لتطور الافراد في جميع النواحي وبصورة خاصة في الناحية الخلقيه .

ولذلك يجب أن يسعى الأفراد إلى ايجاد هذه البيئة الصالحة والعمل في سبيل المنفعة العامة للمجتمع ، ولكن كيف يجب أن يكون هذا ؟ وهل يمكن أن يعتبر المجتمع هدفاً في ذاته ؟ أم يجب أن يبقى وسيلة لتحقيق أهداف أسمى منه ؟ ثم هل يجوز للمجتمع أن يضحي بالأفراد أو أن يمنع هؤلاء من السعي وراء بعض الاهداف في سبيل الدفاع عن كيان المجموع ؟ أليس من الضروري أن يكون هناك قواعد يخضع لها المجتمع في نظامه وفي علاقته مع الافراد .

إن نقطة الضعف في جميع النظريات النفعية (سواء التي تدعو إلى المنفعة الخاصة أو المشتركة أو العامة) هي عدم وجود مثل أعلى معين تفرضه على الافراد ، ومفهوم المنفعة العامة لا يمكن أن يكوّن هذا المثل الاعلى لانه مبهم ، ويستطيع كل فرد أن يفسره حسبما يريد .

والخلاصة فان النظريات النفعية عاجزة من جهة عن أن توضح لنا مفهوم السعادة ،

كما انها من جهة ثانية عاجزة عن أن توفق بين المنفعة الخاصة والعامة ، كما تدعي ؛ ولذلك فإنها فشلت في محاولتها تأسيس الأخلاق على مبدإ متين مقبول . . .

النظرية الاجتماعية

أنصار النظرية الاجتماعية : إن علماء الاجتماع يرون إمكان تأسيس الاخلاق على أساس سلطان المجتمع .

ان المجتمع كائن حقيقي أو مثالي له سيطرة خلقية علينا أن نتصف بها دائماً ؛ وهذا الكائن يمكن يكون له السلطان الكافي ليفرض علينا القوانين الاجبارية .

وما نحن إلا أعضاء سلطانه وإن سيطرته ناشئة من حيث انه شخص حقيقي ، نحن مدينون له بكل ما وصلنا إليه ، وهو مصدر الحضارة وحارسها كما قال اوغست كونت ، فكيف والحالة هـذه نستطيع أن نتمرد عليه ونخرج على طاعته . فالخروج عليه بعيد عنا .

إننا جزء من هذا المجتمع الذي تمتزج آراؤنا فيه ، ولا نستطيع أن نخرج من نطاق المجتمع ونتجرد عنه ما لم نقضي على أنفسنا بالذهاب والفناء .

قال دوركهايم : « من السهل أن نلاحظ وجه التماثل الذي يبدو لنا بين هـذا الاستدلال الذي استند إليه (كانت) في اثبات وجود الإله . »

« إن (كانت) يفترض وجود (الرب) ويسلم بوجوده ، لانه بدون هـذه الفرضية تصبح الأخلاق بعيدة عن التطور والتفكير أي تصبح شيئاً بعيداً عن العقل .

« ونحن هنا نفترض ونسلم بوجود (المجتمع) ، مجتمع يتميز عن الافراد والاشخاص الذين يتألف منهم .

« وعليه فان المجتمع يقوم هنا مقام الرب في نظرية كانت ، ومقام (الإنسانية) في نظرية اوغست كونت . »

وقال لالاند : إنه ليس علينا أن نخلق الاخلاق ، بل اننا نجدها موجودة في البيئة الاجتماعية التي هي عبارة عن مجموعة قوى تؤثر في أفكار الفرد وعواطفه وأعماله ، وهذا التأثير عميق الاثر جداً لأنه مستمر وخفي .

وهكذا فان الطفل يخضع لتأثير البيئة العائلية قبل أن يستيقظ تفكيره ، فيقلد بقية أفراد الاسرة ويقتدي بهم في كل شيء ويتبع أوامرهم ونصائحهم ...

وكذلك لاينكر تأثير التربية والعادات الاجتماعية في الوجدان وتكوين الاعتقادات والقيم الخلقية .

يقول (اوغست كونت) إننا نستطيع أن نستنتج القوانين الخلقية من علم الاجتماع ويقول أيضاً : « ان الفرد ليس الا شيء مجرد ، لانه بطبيعته متصل بالوسط والبيئة التي يعيش فيها ، ولا يمكن فصله عنها إلا بواسطة التجريد » وكان هذا الفيلسوف يقول مع ارسطو « الانسان حيوان اجتماعي . »

مناقشة النظرية الاجتماعية

الناقد : إن هذا التعليل لتأسيس الاخلاق على المجتمع مدعاة لانتقادات كثيرة منها:

١ – نبه (برغسون) لوجود قوة مقابل سلطـــان المجتمع تلك هي قوة العاطفة الدافعة (ضد هذا المجتمع ، وهي قوة تمتاز بالبطولة والقدسية والالهام ؛ وهذه العاطفة هي مبدأ الحياة والتقدم .

ذلك لأن كثيراً من المجتمعات غير فاضلة ولا صالحة ، ورجل الفضيلة يقاومها ويعمل على معاكستها والثورة عليها. وذلك من القضايا الخلقية ، أما اذا نحن قبلنا هذه الاعمال الفاسدة الاجتماعية فنكون قد تجردنا من صفة الانسان الكامل هكذا نرى كثيرين من أفراد المجتمع المصلحين تدفعهم نفوسهم الى انتقاد المجتمع والثورة عليه ، هؤلاء الافراد رغم نشأتهم في المجتمع قد ارتفعوا فوقه واستقلوا عنه حتى أصبحوا يرون من حقهم الحكم عليه وتقدير أعماله حسب مثل أعلى يعتبرونه أسمى من المجتمع .

٢ – يجب أن نتساءل : هل تلد الاخلاق في الواقع حقيقة من الحياة الاجتماعية وحدها ؟ أليس هناك جماعات حيوانية أيضاً ، فلماذا لم تنشأ فيها حياة خلقية مثل الانسانية ؟!

ألا يرجع السبب في ذلك قبل كل شيء إلى أن البشر كائنات تمتاز بالعقل والتفكير والضمير وبفضل ذلك يرقى في معارج التكامل ؟

٣ – ونستطيع بالنظر إلى حالة المجتمعات السائدة وفسادها ، أن نتسائل فوق ذلك : اليس من الضروري أن يقوم المجتمع الحقيقي (الذي هو شرط لازم للأخلاق) على أسس أخرى حتى تتحقق « المدينة الفاضلة » التي كان يتصورها فلاسفة ماوراء الطبيعة العقليون .

٤ – هذا وانه من الخطإ الفادح أن نقول مع (اوغست كونت) إن الانسان شيء مجرد ، أي لا وجود له كإنسان ، وأن وجوده متعلق بالمجتمع ، لان الانسان قد يشك في كل شيء ، ولكنه لا يستطيع مطلقاً أن يشك في نفسه وشعوره ، فالانسان بقطع النظر عن كل شيء يشعر بأنه ذو كيان حقيقي .

٥ – بين المفكر الروسي (تولستوي) في كتابه « البعث » أن المجتمع يجعل فروقاً بين البشر ، ويخلق درجات اصطناعية ، فان التنظيم الاجتماعي هو الذي يؤدي إلى التمييز بين طبقات عالية وطبقات حقيرة ، بين حكام ومحكومين .. وأفراد هذه الطبقات يضطرون في علاقاتهم إلى اتباع قواعد معينة يتمسكون بحروفها ، ومثل هذه الأنظمة من شأنها أن تقتل كل أثر للحياة والروح ، وان تجعل البشر ينسون رابطة الحب الاخوي التي يجب أن تجمع بينهم ..

٦ – إننا متحققون ان المجتمعات تختلف من الناحية الخلقية في الزمان والمكان فما هو أخلاقي بنظر مجتمع ما قد يعتبر غير أخلاقي في مجتمع آخر . قال باسقال ما كان صواباً أمام سفوح البيرنه (الجبال الفرنسية الاسبانية) اعتبر ضلالا فيما وراءها !

ويمثل هذا النظر يخلع أثواب القدسية عن الاخلاق ويهون أمرها وتولد الريبة بها والشك فيها مادامت اعتبارية متبدلة . ولا يخفى ما يؤدي اليه هذا الزعم من المفاسد التي لا تأتلف وطبيعة الاخلاق ومصلحة المجتمع نفسه .

٧ ـ ان الهدف الخلقي الذي يتصوره دور كايم وزميله ليفي برول معناه الجمود بكل معنى الكلمة ، وقتل كل تحفز في الانسان نحو المثل الخلقية العليا ، فاذا كانت بيئته لا تتفق ومبدأ المساواة والحرية فهل يجب علينا أن نبقى الى الابد على هذه الحالة راضين بذلك أم يجب أن نتحفز للتقدم إلى الامام ونعمل بكل قوانا للوصول إلى هذه المساواة والحرية .

٨ ـ وفوق ذلك هناك أعراف وتقاليد وقوانين تأباها الاخلاق وتدعو الى محاربتها ، فبعض المجتمعات لديها عادة شرب الخمور والميسر والزنا والتدخين واستثمار الآخرين ونظام الطبقات ، والتفريق باللون ، كما أن هناك قوانين غير خلقية كالقوانين التي تسمح ببيع الخمور وقوانين الضرائب غير المباشرة التي تنتف ريش المواطن الفقير دون أن يشعر ، فتسلبه سعادته لا بل حياته .

واذا كان الطفل يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها فهذا صحيح ، ولكنه عندما يصبح راشداً مدركاً لا يعود يتأثر بالمجتمع تأثيراً سلبياً بل يحاول بدوره أن يؤثر في مجتمعه وينتقي من هنا وهناك ويسير في سلوكه حسب تفكيره الخاص وفلسفته الخاصة في الحياة ، وكل هذا تنكره النظرية الاجتماعية وتجعل للفرد قابليته سلبية محضة .

٩ ـ إن هذه النظرية الاجتماعية من شأنها أن تحط التبعة عن عاتق الفرد وتقول بأنه ربيب المجتمع الذي يسيره ويوجهه ، وبذلك يتمادى في طغيانه ثقة منه بأنه سيجد من يبرئه ، يقول الدوس هكسلي « انه لا مناص من أن يقف المحلل النفساني إلى جانب المجرم الخلقي . » مادام « المجتمع هو الذي يفرض القيود التي ينشأ عنها الكبت والامراض العصبية ؟ لهذا كان المجتمع بنظر علم النفس هو المجرم ، فتكون

النتيجة أن ينساق الانسان في شهواته طالما يجد له من علم النفس وعلم الاجتماع المبررات الكثيرة لاحترامه بسبب (الجبرية) الاجتماعية !

وذلك من أخطاء النظرية الاجتماعية التي تغفل العامل النفسي الحر الذي يجعل الإنسان مسؤولاً عن عمله إلى حدٍ بعيد .

النظرية الحيوية أو الطبيعية

وهنا انبرى أنصار النظرية الحيوية الطبيعية وقالوا : إن أفكار لامارك وداروين في التطور والاصطفاء الطبيعي قد امتدت في القرن التاسع عشر الى علم الاخلاق فأقامتها على اساسها وسمتها بالنظريات الحيوية . وقد قامت الفكرة العامة في هذه النظريات على أن أواصر الضمير الخلقي شيء يمكن شرحه بالاعتماد على قوانين الحياة الطبيعية على أمثال تطور الانواع الحية خلال الزمان. ومعنى ذلك أن ضرورات الحياة الإنسانية في ظرف تاريخي معين هي التي تنشيء الميول الخلقية ، وأن هذه الميول مصطفاه اصطفاء طبيعيا بين جملة الميول الاخرى ، وان من لا ينقاد لها يزول ويفنى في حين أن الذي يتبعها يكتب له البقاء .

الناقد : هناك عدة انتقادات توجه إلى مثل هذه الآراء : منها أنه قد يمكن أن نعلل أو نشرح غرائزنا وحاجاتنا الحيوية بقوانين التطور والاصطفاء الطبيعي إلى حد ما ، وكذ نستطيع تعليل أو شرح ميولنا نسبيا بالاعتماد على هذه القوانين إذ اعتبرنا أن هذه الميول النفسية صدى لحاجاتنا الحيوية ، ولكن من الصعب القول بامكان تعليل الأحكام الخلقية بمثل هذه العوامل ، ذلك أنها ليست معلولاً بسيطاً كميل من الميول ، بل هي أمور أعقد من ذلك بكثير ، ثم أن هذه النظريات تؤدي الى اللا أخلاق ، أو الى اعدام الأخلاق بالاصح ! اذا كانت الأخلاق تجاري الميول الطبيعية فانه ليس من الحق القول إن بعض هذه

الميول حسن وبعضها الآخر سيىء ، وبذلك يزول كل فارق بين الانسان والحيوان ! غير أن الانسان يعي ما يعمل على حين أن الحيوان لا يعي مايعمل .

وتغافل المناصر لهذه النظرية عن نقد اساسها وذكر صوراً من هذه النظريات فقال :

١ – وتأتي في طليعة هذه النظريات نظرية هربرت سبنسر وهو يأخذ بمبدأ ستوارت ميل في ايثار الغيرية غير أنه يوفق بين هذا المبدأ وبين مذهبه التطوري وكان (ستوارت ميل) فيما نعلم يرى أن الناس مفطورين على الاثرة (الانانية) ، غير أن التربية والتجربة تنشىء فيهم ميولاً (أنانية غيرية) تقوم على أن يكون الانسان غيريا خدمة لمنفعته الخاصة ، ثم إن ممارسة هذه الميول الأنانية - الغيرية يرقى عنه بعض الناس الى مستوى الغيرية الخالصة ، أما (سبنسر) فانه يرى أن هذا التطور لايتم في الفرد نفسه بل في النوع ، فالانسان الابتدائي يولد أنانياً (في المدينة الحربية) أما الانسان المعاصر فيولد أنانياً – غيريا (في عصر الانتقال من المدنية الحربية إلى المدنية الصناعية) ، وأما انسان الغد فانه سيكون غيريا محضا (في مرحلة المدنية الصناعيه ، ومن ناحية اخرى فان شروط الحيـــاة الإنسانية تزداد سهولة بالتدريج ، وهكذا فانه سيأتي يوم تقل فيه الحاجة الى التضحية من أجل الآخرين بحيث يبحث الانسان عن فرصة مناسبة لبذل التضحية ، وقلما يعثر عليها ، وبما أن الناس جميعاً سوف يبحثون عن مثل هذه الفرصة فليس هنالك مايخشى من أن يهمل الانسان رعاية مصلحته الخاصة حرصاً على مصلحة الآخرين ، وبانتظار الوصول الى هذه المرحلة من التطور فإنه يحسن بالافراد الذين ينتظرون غاية التطور أن يقلدوا الافراد الاكثر تطوراً بينهم من الناحية الغيرية ، وأن يحاولوا الحياة على طريقة الأجيال المقبلة .

الناقد : ولكن مما لا شك فيه ان هذه النظرية تستند الى فرضية ضعيفة وهي أن الجماعات تتطور بالتدريج نحو الغيرية ، وهذا أمر يطول فيه الجدال ، إذ ليس هنالك ما يؤكد بأن التطور يتقدم نحو هذه الغاية ، أو أن الناس اليوم قد أصبحوا أكثر غيرية من ذي قبل ، ولو صح ذلك لما وجد ما يؤكد أن هذا التطور سيتابع المسير حتى يصل الى الكمال المطلق المرجى ، وأكثر من ذلك أن آراء (سبنسر) غير منسجمة بعضها مع بعض ، فهو يرى أن ليس هنالك غير اللذة من حافز الى العمل ، واذا كنت في شروطي الحالية لا أشعر بأي لذة في القيام بتضحية من أجل الآخرين على مثال الرجل المكتمل التطور فإني لا أفهم لماذا يجب ان اتعجل التطور وأحذو حذو رجال المستقبل قبل أن يأتي هذا المستقبل .

انصار النظرية الطبيعية: هناك نظرية جان ماري غويو (١٨٥٤ – ١٨٨٨) يقول في (كتابه: الأخلاق بلا جزاء ولا الزام) فإنه لا يطلب من علم الحياة تعليل الحادث الخلقي فحسب بل انه يطلب منه أيضاً أن يقدم معوضات عن الواجب .

أ) وهو أن يرى أن قانون الحياة الأول ليس هو البحث عن اللذة وإنما هو قائم على أن العمل والقوة المختزنة فينا تضطرنا اضطراراً الى البحث عن سبل لانفاقها بغض النظر عن أي ميل الى اللذة أو طمع فيها ، وانما اللذة تنشأ عن العمل ، وكذلك يرى ان القوة المختزنة لاتنبسط في العمل الا من اجل اللذة أو بسببها وباغرائها ، وانما الحياة نفسها تمتد في العمل وتنبسط فيه لأنها الحياة .

ب) وعن هذا تنشأ المعوضات عن الواجب ، ويرى غويو ان أول هذه المعوضات هو القدرة على العمل وبدلا من أن يقول الإنسان ان علي واجباً ينبغي علي اداؤه يجب أن يقول : أنني أستطيع بذل جهد ما ، فيتحتم علي تبعا لذلك بعض الواجبات . أو بدلاً من أن يقول انه يجب علي ، فيجب ان استطيع ، يجب ان يقول انني استطيع ... فيجب علي ...

وثاني المعوضات هو تصور العمل الممكن . فهذا أيضاً مما يدفع على العمل ويصبح نوعاً من واجب العمل .

ويقول غويو :

ليس العمل إلا استطالة للفكرة ، والفكرة هي تقريبا كلام ، ونحن محمولون على التعبير عن أفكارنا بقوة نجد معها أن الكهل والطفل الاقل منا مقاومة لهذا الدافع يفكران عاليا ، وليس هناك شيئان أحدهما تصور الغاية والثاني جهد من أجل بلوغها ، بل ان التصور ذاته هو الجهد الاول ، فالإنسان يفكر ويحس ، والعمل يتبع ذلك وليس هناك من حاجة ولا من حد متوسط ولا من جسر للعبور من أول هذين الشيئين الى الثاني أي من الفكر الى العمل بل هما في الواقع متماثلان .

ثم إن هنالك حب المخاطرة ، سواء أكانت المخاطرة في العمل التي هي الباعث على كل هذه الأعمال الجريئة التي يندفع اليها رواد المدنية المادية ، أو في العالم الميتافيزيكي أو الفكري كما هي الحال عند الفيلسوف سقراط مثلا الذي يرى أن الحياة الآجلة هي مخاطرة جميلة يحسن بنا أن نسحر بها .

يقول غويو : « إن دموعنا أكثر مما تحتاج اليه آلامنا وابتساماتنا أكثر مما تحتاج اليه مسراتنا ، فنجد انما خلقنا لنعيش في غيرنا !

الناقد : لئن صح القول بأن القوى المختزنة تميل إلى الانتشار فلا بد من التساؤل : لم تنتشر هذه أقوى عند بعض النفوس على صورة أعمال مستأثر (أنانية) لا غيرية ؟ ولم يحكم الضمير الأخلاقي بالسوء على الشخص الذي يبحث عن تنمية ذاته على حساب الآخرين مع ان هذا هو قانون كل حياة ؟

مناقشة النظرية الطبيعية

الناقد : ان هذا المذهب شعري جميل حتى أن (غويو) كان شاعراً . غير أن مذهبه هذا لم يكن محدوداً ومنطقياً ، إذ أنه كان يدعو الى الحياة الشديدة الفعل

والعمل ، لم يفرق بين عمل وآخر ، وهذا التفريق لايكون عن طريق غريزة الحياة بل عن طريق العقل ، ولو صح هذا الأساس فنحن نرى في الحياة أن بعض النفوس ملأى بالفاعلية الطيبة وبعضها بالفاعلية الشريرة ، لماذا يحكم ضميرنا اذاً على هؤلاء الآخرين بالرذيلة مع أن هذا هو قانون الحياة الذي يجب السير حسبه لو صحت نظرية (غويو) في تأسيس الاخلاق على العمل والفاعلية .

انصار النظرية الطبيعية : هناك نظرية نيتشه فانه يتفق مع غويو في قبول مبدأ ميل الحياة الى النمو والتوسع غير أن غويو كان يستلهم الاخلاق النصرانية في كل ما يكتب بالرغم من فلسفته الطبيعية على حين أن نيتشه يطرح جانباً هذه الاخلاق النصرانية ويراها مخالفة للطبيعة وتنتهي إلى لا أخلاقية منظمة[1] .

والقانون الاكبر في الطبيعة عنده هو قانون الاصطفاء الطبيعي ، وهو شرط للتقدم ومن الضروري لحياة النوع أن يهلك المشوه والضعيف والمسوخ ، غير أن الاخلاق التقليدية والاخلاق النصرانية واخلاق (كانت) خاصة تحول دون هذا الاصطفاء بإعلائها لقيمة كل إنسان حتى الانسان الضعيف ، فكل هذه أخلاق العبيد إذ تجعل القوي معلقاً بالضعيف والسوي بالشاذ والبطل بالجبان ، وقد أصبح محتوماً بتأثير هذه الاخلاق أن تسير الانسانية بالتدريج نحو الانحطاط كما لاحظ ذلك سبنسر في قوله :

إن إعاشة الضعفاء على حساب الاقوياء أمر في منتهى الفظاعة بل إن ذلك مستودع من البؤس نتركه عمداً للأجيال المقبلة ، ولن نستطيع أن نقدم للمستقبل هدية أسوأ من أن نعرقل مسيرها بعدد متزايد كل يوم من البلهاء والكسالى والمجرمين . فلا بد إذن من قلب القيم وإنشاء « أخلاق السادة » أخلاق الاقوياء ، وترك المجال لقانون الاصطفاء الطبيعي يعمل بحرية .

(ليهلك الضعفاء والمتخلفون) ، هذا هو المبدأ الاول في حبنا للناس ، ولنساعدهم أيضاً على الهلاك ، هكذا يقول نيتشه في كتابه غروب الاصنام :

---

(١) الأخلاق للاستاذ عبد السلام العبسي .

« وليمش كل إنسان من أجل ذاته ، ولتتناحر الانانيات ، إذ أن الاقوياء هم الذين يفوزون في هذه المعركة ، وهكذا فإن قانون الاصطفـاء الطبيعي سينتج بالتدريج نماذج من البشر أكمل فأكمل ، حتى ينتهي الى انتـاج الانسان الأعلى الذي تطمح الانسانية في اعمق ميولها الى انتاجه « ان الانسان الأعلى هو الشاغل الوحيد لقلبي ، إنه هو الشيء الاول الذي يعنيني ، لا الانسان الضعيف ولا الجار ولا الأفقر ولا الأشد تألماً ولا الأطيب قلباً [١] ».

الناقد : اننا لنعترف حالاً بأن القول لكل انسان حظا واحداً من الكرامة والحقوق إنما يؤدي الى خسائر كثيراً للانسانية ، ذلك أن الضعفـاء والمشوهين يستطيعون بفضل ذلك الحياة ويتناسلون ويكونون دوما عالة على الانسانية ،ولو ان الانسانية تقبل آراء نيتشه في الأخلاق أو آراء سبنسر لأهملت هؤلاء ، وتركتهم يموتون ولا ينسلون ، ولتخلصت من أثقالهم عليهـا ، إلا أن في آراء نيتشه إهمالاً لكثير من النقاط الاساسية ، وأول ما يقـال إن لكل إنسان حتى ولو كان ضعيفاً جداً غـاية يريد تحقيقها ، فلا يمكن إذن إهمال هذا الواجب الذي يؤدي الاعتراف به إلى اعطاء بعض الحقوق لصاحبه ، ومن ناحية أخرى فإن العنـاية بالضعفاء فرصة تتيح للأقوياء أن يزيدوا في عظمتهم عن طريق التعالي على أنانياتهم ، ثم إن الاصطفاء الطبيعي مما يؤدي إلى نشوء نوع من الانسان هو اقرب ما يكون إلى البهائم لا أقرب ما يكون الى الأنبياء ، وهكذا فإننا نرى أن أخلاق نيتشه هي نفي لكل أخلاق ، وهذه اللا أخلاقية في آراء نيتشه هي النتيجة المنطقية للأخلاق البيولوجية وللأخلاق التجريبية جملة ، إذ متى أخذ الانسان قانونه من العالم الطبيعي أدى به ذلك الى قبول كل الميول وكل الأنانيات ، ولا يمكن إنشاء الأخلاق إلا

---

(١) نيتشه في كتابه : هكذا تكلم زردشت .

بالارتقاء فوق العالم الطبيعي بالاعتماد على العقل الذي يدرك ما يجب أن يوجد خلال ماهو موجود .

النظرية الطبيعية بصورة عامة

الناقد : هذا الطراز من الاستنتاج الذي نادى به دارون وسبنسر مبني على أسس علمية واهية ، لأن التنازع الحيوي ليس العامل الوحيد في التكامل الحيوي ، بل هناك عوامل أخرى كالتضامن والتعاون .

ثم هناك غلط فادح وهو تشبيه الجماعات بالعضويات الانسانية والجماعات الحيوانية ، مع أن هذه لا تجتمع إلا بتأثير غرائز بحته ؛ بينما إجتماع الانسان الى الانسان يتولد عن علائق روحيـة ، وينتج عن هذا اجتماع الديانات والمؤسسات الاجتماعية كاللغة والشرائع .

وكما أن الأفراد ليسوا عبـارة عن حوادث كهربائية وكيماوية ، كذلك (الجماعات) ليست فقط عبارة عن عضويات مجتمعة ، ففي العضويات المجتمعة العضو ليس مستقل ، وليس عنده حرية لحكم نفسه بنفسه ، بينما الفرد عنده حرية يستطيع أن يناقش الجماعات .

واخيراً إن هذه القواعد الخلقية الكاذبة لا تنتهي الى الأخلاق ولا تثبت دعائمها ، بل تنتهي إلى نبذها ، لأن الأخلاق ليست عبارة عن التقيد بالقوانين الطبيعية ، بل الأخلاق كانت منذ الأجيال الغابرة الى الآن عبارة عن جهد متواصل لمكافحة بعض حوادث الطبيعة وتحويلها ، والحق ان العـالم الانساني تسوده العواطف السامية ، ولا يمكن وجود أخلاق دون تصور وتخيل مثل أعلى نضعه نصب أعيننا ونعتمد عليه في تقدير قيم الأشياء سواء اكانت خلقية أم علمية .

ولقد يمكن أن نعلل أو نشرح غرائزنا وحاجاتنا الحيوية ، بقوانين التطور والاصطفاء الطبيعي إلى حدٍ ما ، وكذلك نستطيع تعليل أو شرح ميولنا ، نسبياً بالاعتماد على هذه القوانين ، إذا اعتبرنا أن هذه الميول النفسية صدى لحاجاتنا الحيوية ، ولكن من الصعب القول بامكان تعليل الأحكام الخلقية بمثل هذه العوامل ، ذلك أنها ليست معلولاً بسيطاً كميل من الميول ، بل هي أمور أعقد من ذلك بكثير ، ثم إن هذه النظريات تؤدي إلى اللاأخلاقية ، أو الى إعدام الأخلاق ، مادامت الاخلاق تجري مع الميول الطبيعية .

النظرية العاطفية الحدسية

أنصار النظرية العاطفية : اننا نرى أنه يمكن تأسيس الأخلاق على الحدس لأن في الانسان حدساً يلمس بواسطته الحقائق ومنها الحقائق الخلقية بصورة آنية مباشرة ، فيكفي لمعرفة الحقائق الخلقية الرجوع الى هذا الحدس العاطفي الخلقي ، وهو ما يعرف بمذهب الأخلاق العاطفية .

قال شانسبوري : « ان في الانسان حاسة تبين له الخير والشر ، وتجعله يشعر بالملذات الناجمة عن التضحية أكثر من شعوره بالملذات الناجمة عن الأثرة والأعمال الفظيعة .

وقال أيضاً : « إن في الانسان شعوراً خلقياً من وظيفته إدراك الخير والشر ، كما أن لنا أعيناً من خواصها إدراك الالوان والتمييز بينها » .

وهذا ما أشار اليه روسو قائلاً : « إن الانسان بطبيعته طيب ، وإن المجتمع هو الذي يفسده ، وإن الحياة الخلقية تكون في أن نتبع هذا الدافع الغريزي الذي يدفعنا نحو الاصلاح والخير » .

إن الصفة المميزة للنظرية العاطفية هي محاولتها ارجاع الاخلاق إلى القلب .

وفي الحقيقة ان في القلب العناصر الاساسية اللازمة للحياة الاخلاقية لأنه

أ – يمتاز بنوع خاص من المعرفة الحدسية الدقيقة التي تدرك الخير بصورة مباشرة ودون تردد وتكشف عن الحل الموافق الأخلاق في كل ظرف من غير أن تنحصر في الأمور العامة الكلية مثل المعرفة العقلية .

ب – يشتمل على قوة دافعة تقوم مقام الالزام الخلقي بل تفضله ، وذلك لأن هذه القوة ليست ضغطاً يفرضه علينا المجتمع ، بل إنها لا تشبه حتى الأمر المطلق الذي يفرضه علينا (كانت) بقساوة ، والذي يكبت جميع ميولنا واستعداداتنا النفسية ؛ إنما في القلب قوة تسير شخصيتنا كلها وتدفعها الى العمل الخلقي دون ان نحتاج الى التفكير والتبرير كما نرى ذلك في عاطفة الشرف التي تتجلى فيها قوة القلب ، فإن الشرف لايقبل التردد في القيام بالوجائب التي يستلزمها ، لأن أقل مناقشة في هذه الوجائب لابد أن تفسر بفقدان الشرف .

ج – يتضمن المؤيدان الحقيقة للأخلاق مثل الندم والارتياح وغيرهما من المظاهر العاطفية في الوجدان التي تمتاز على جميع العقوبات والمكافآت الاجتماعية .

يستخلص مما تقدم أن أصحاب النظريات العاطفية يرمزون بالقلب الى مجموعة العواطف وما فيها من قوى دافعة .

وقد أشار (تولستوى) الى أن القلب بعكس الأنظمة الاجتماعية ، لا يتقيد بالحواجز والفروق غير الطبيعية بين البشر ، فإنه هو الذي يولد الثقة المتقابلة ويوحي بروح العفو والتسامح والمودة ، ويقضي على غرور الألقاب والمناصب ، وبكلمة واحدة : انه هو الذي يجعل الإنسان إنسانا حقا .

ويقول (برغسون) إن النفس المفعمة بالعاطفة تشعر بالانسجام التام بينها وبين مبدأ الحياة ، وبالأحرى فإن ما يتجلى فيها ليس في الحقيقة سوى مبدأ الحياة نفسه ».

وهكذا فإن النداء الذي ينبعث عن العاطفة الإنسانية من طبيعته أن يدفعنا

الى أن نخلق في أنفسنا وحولنا حياة جديدة ، حياة حقيقية ، وهو يجذبنا الى مجتمع مثالي ويسمو بنا الى تحقيق المدينة الفاضلة .

وقد أكد (برغسون) أن العقل عاجز عن أن يصبح مبدأ للعمل في الحياة الخلقية .

مناقشة النظرية الحدسية العاطفية

الناقد : ١ – هذه النظرية تدعي بأن الطبيعة البشرية واحدة ، لا تتبدل لا في الزمان ولا في المكان ، وهو أمر منقوض ، لأننا اذا كنا كلنا نشعر بالخير جميعاً ، فلماذا تباينا في قواعدنا الخلقية بحسب اختلاف مجتمعاتنا الخلقية ؟!

٢ – نحن نشعر في قلوبنا بعواطف وميول ، ولكن هذه العواطف وهذه الميول والقواعد الخلقية أخذنا مجموعها من العادات الزائفة في الوسط الذي نعيش فيه ، وقد يكون هذا الوسط غير خلقي ... نأخذ كمثال لذلك محاكم التفتيش التي انشئت في إسبانيا ، فقد دفعتها عواطفها الجنونية الى ارتكاب أفظع الجرائم التي عرفها التاريخ من أجل تعذيب المسلمين واضطهادهم واجبارهم على دخول الديانة النصرانية !!

٣ – هذه النظرية تستند الى الحدس ، والحدس بطبيعته أمر مبهم ، لا يمكننا أن نفهمه بذكائنا !

وأصحاب هذا المذهب يبنون القواعد الخلقية على العاطفة ، مع أن العاطفة لاتكون خاضعة للعقل دوماً ، فهم يقولون : لا تفكر ! فإن عاطفتك هي الكل في الكل في أخلاقك ، ومن الواجب على عاطفتك أن تقومك وتسيرك في مسالك الحياة .

فإذا كانت هذه هي العاطفة ، وهذه هي صفاتها ، فكتف لنا أن نبني الحياة الخلقية على شيء مبهم كهذا ، على ان الحياة بحاجة إلى تبصر وروية والى معلومات دقيقة . .

٤ – إن القلب من طبيعته التقلب ، فهو ينتقل بسرعة من حال الى حال ، فتراه حيناً مفعما بالعواطف الرقيقة والحنان والرأفة ، وحيناً آخر جامداً قاسياً !

٥ – ان ما يتصف به القلب من المبالغة والتطرف حتى في الحب الظاهر المحض يجعله سبباً لكثير من المخاطر و المفاسد .

ومعلوم أن الانقياد الى العاطفة ورقة القلب كثيراً ما يؤدي الى مخالفة مبادىء العدل .

٦ – واذا اعترفنا بأن القلب يستطيع في بعض الأوقات أن يرشدنا الى الحقيقة والخير ، فمن الضروري أن نسلم أيضاً بأنه يمكن أن يخطىء في كثير من الأحيان ، ولعلنا لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا بأن القلب قلما يهتدي وحده الى الأمور التي تستحق الحب والعطف ، ثم الى الطرق التي يجب أن يظهر فيها هذا الحب والعطف .

٧ – والعجيب أن لا يثق (برغسون) في أحكام العقل ، ثم هو يثق بأحكام العاطفة العمياء الغامضة !

٨ – ليس الشعور الخلقي الصادر عن العاطفة بمعصوم عن الخطإ ، فالمرء اذا أصغى اليها قد يتعرض في أحيان كثيرة إلى الخطإ ، وان تاريخ المؤسسات الاجتماعية يبين لنا أن البشر كانوا في الماضي اصغوا لعواطفهم وضمائرهم وقاموا بأعمال ظنوها خلقية ، فاذا هي في الواقع منافية للأخلاق السليمة ، الم نذكر أن أقواماً من البشر قدمت الضحايا الإنسانية لأربابها وأساءت معاملة النساء ، وقضت بقتل الشيوخ والمسنين ، وأمرت بدفن المرأة حية مع زوجها المتوفى وكانوا يشعرون في ذلك بأداء الواجب .

٩ – يؤدي العمل بهذه النظرية الى تبرير عمل كل فرد ، معتبراً عاطفته دليله ومرشده ولا يعود يناقش أعماله ، ويقبل كل ما توحي اليه عاطفته ، وفي هذا خطر خلقي عظيم لا نكران له .

النظرية العقلية

أنصار النظرية العقلية : ونحن نرى وجوب تأسيس الأخلاق على العقل البشري نفسه . فان للعقل قيمته الكبرى ، فقد اهتم بالحقيقة العلمية فتوصل لأمور عديدة ونتائج باهرة بعدما وضع قواعد للبحث العلمي ، فصار يكتشف الحقائق العلمية الساطعة .

وهذا العقل إذا تجرد عن المصالح ، وراعى شروط النزاهة ، ووضع أسس علم الأخلاق ، فانه يستطيع عندئذ الوصول الى حقائق خلقية ثابتة .

إن الانسان لأجل أن يصبح خلقياً يجب أن يكون قبل كل شيء إنساناً بكل معنى الكلمة ، ولما كان الإنسان لا يمتاز عن بقية الحيوانات بجسمه أو إحساساته ولا في طبيعته الاجتماعية ، فانما يمتاز بعقله وحده ؟ لذلك كان بامكانه بهذا العقل تأسيس الأخلاق .

إن الانسان بفضل عقله يعمل بما تقتضيه طبيعته الحقيقية ، ويتوصل بذلك الى السعادة المعنوية التي تشعر فيها الروح بالانسجام والنظام والحرية والقوة والكمال .

ويرى الفلاسفة العقليون أن جوهر الانسان هو العقل ، ولذلك فهو يتصف بالحرية والتبعة (المسؤولية) ويمتاز بذلك على كل مافي الطبيعة .

وترى النظرية العقلية أن العقل وحده هو الذي يستطيع ان ينشىء أحكام القيم ، مثل قولك : الايثار (الغيرية) أفضل من الأثرة (الأنانية) ، والعقل وحده هو القادر على تخيل مثل أعلى مختلف عن الواقع .

مناقشة النظرية العقلية

الناقد : قال يرد على النظرية العقلية انتقادات عديدة أهمها :

١ ــ أن هذه النظرية يقتصر اهتمامها على حياة التأمل والتفكير ، فهي لذلك تؤدي الى اهمال العمل .

وفي الحقيقة إن أصحاب هذه النظرية يفضلون بصراحة الحياة الروحانية على الفعالية المادية العملية ، ويطلبون من الانسان ألا" يخصص إلا أقل ما يمكن من الوقت لتأمين حاجاته الجسمية ، وألا" يفسح المجال لازدياد هذه الحاجات بصورة اصطناعية .

٢ – وذهب آخرون الى أن الإنصراف الى حياة التأمل والتفكير يدل على الأثرة ، لأن الذين يقتصرون على ذلك لا يؤدون شيئاً من الخدمة الى الآخرين مقابل ما يقدمه لهم هؤلاء من وسائل الحياة المادية ، بل وبما يقتبسونه عنهم من الغذاء الفكري أيضاً .

ألم يكن الأمر كذلك في المجتمعات الارستوقراطية القديمة كما في الهند التي كانت الثقافة فيها مقتصرة على الطبقات الممتازة ؟! أو في اليونان حيث كان المواطنون الأحرار وحدهم ينصرفون الى الحياة الفكرية ويستخدمون الأرقاء لتأمين حياتهم المادية ؟

فهل يمكن قبول أخلاق تساعد على مثل هذه الأثرة الطبقية .

٣ – إن الحياة الخلقية لاتؤسس على العقل فقط بل إنها تضم عناصر عاطفية مختلفة ، واذا اهمل السامي من هذه العواطف نكون قد خسرنا كثيراً من اندفاعاتها المفيدة .

٤ – لا يستطيع الانسان أن يعيش حياة خلقية كاملة إذا اعتمد على عقله وحده ، فلا يكفي المرء أن يعرف الخير ويفهمه ، وانما لا بد له من أن يحبه ويريده ، وإلا فلا يظهر الخير في اعماله .

٥ – إن أحكام العقل غير مصيبة دائماً فكثيراً ما تتأثر بالهوى والعاطفة والمصلحة والخيال ؛ وكثيراً ما جاءت أحكامه ونظرياته العلمية خاطئة فكيف الحال بالقضايا الخلقية المعقدة ؟!

٦ – وأكثر من ذلك أن العقل لا يستطيع أن يفرض الأوامر ، وان يجعل المثل الأعلى الذي تصوره ملزماً ، والواجب لا يمكن أن يكون قوي الدعامة مالم يستند إلى سلطة أعلى من سلطة العقل الفردي .

٧ – وقد لا يستطيع العقل (على رأي كانت) أن يثبت إمكانية الفلسفه الغيبية (الميتافتريكية) ، وعندئذ لا يمكن استنتاج السلوك الذي يجب على الانسان اتباعه .

٨ – إن الصيغة الشكلية للنظرية العقلية هي لغة بعيدة عن ادراك الجماهير والأكثرية الساحقة من البشر ، إذ لا توحي لأكثر الناس بأية قوة تدفعهم إلى العمل ، بمثل قولك إعمل الواجب لأن العقل يأمر به .. إن هذه اللغة صعبة لا تستجيب لهـا نفوس أكثر الناس ، بل من المستحيل ان تستجيب لها حتى نفوس الخاصة .

٩ – إن هذه النظرية تفسح المجـال للفرار من الأوامر الخلقية مادامت غير مؤيدة إلا من العقل ، الذي يمكن التحايل عليه ، وربما تحايل هو على نفسه متأثراً بالمصلحة الشخصية والشهوة الانسانية .

نتائج هذه النظريات

الناقد : رأيتم فيما سبق أشهر النظريات الخلقية وقد ثبت لكم عجزها وفسادها بشهادات الفلاسفة أنفسهم .

وقد هدم الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه نظرية الاسلام الخلقية هذه النظريات من أساسها بتوجيه السؤال الآتي :

« ما هو العامل الذي يحض الإنسان على العمل بالقوانين الخلقية والسير بمقتضاها على رغم أنف ميوله ورغباته الفطرية ؟

فهنا يقول بعض القوم : ان الطمع في المسرة والرغبه في الحبور ، والنفور من الاسى والالم يكفي به حافزاً يستحث الإنسان على الاستمساك بتلك القوانين .

ويقول فريق آخر : إن الرعية في الكمام والطمع في تجنب النقص ، كفى بهما محرضاً على التقيد بقوانين الاخلاق والاستمساك بأهدابها .

ومن الناس من يعد وازع احترام القانون كافياً للحض على الائتمار بمثل الاخلاق العليا ، ومنهم من يهتم كل الاهتمام بطمع المرء فيما تجزيه الدولة من مكافأة ، ويعنى كل العناية بخوف المرء من غضبها .

ومنهم من يؤكد كل التأكيد أن ما يجزي به المجتمع ويثيب به أو ما سجل على المرء من غضبه وسخطه يكفيه حافزاً مستحثاً أو ناهياً مجنباً ... »

ثم أردف الاستاذ المودودي قائلا :

« وكل جواب من هذه الاجوبه المختلفة قد وقع موقعاً سامياً خطيراً في هذا النظام أو ذاك من النظم الخلقية الرائجة بين أيدينا في العـــالم . وإذا تأمل المرء وجه المسألة وفق النظر فيها ، تبين له أن جميع هذه الحوافز قد تكون باعثة على المفاسد والرذائل الخلقية كما تحمل وتستحث على الفضائل والمكارم ، بل انها تصلح أن تكون حوافز للشر أكثر من أن تكون حوافز للخير .

ومهما يكن من الامر ، فلا شك أن جميع هذه الحوافز لا تكفي البتـة أن تنشىء في الانسان من الاخلاق ما يعد خلقاً عالياً أو فضيلة سامية . »

وقد كان لهذه النظريات آثارها السيئة في انحطاط الاخلاق ، وتدهور السلوك الاجتماعي بسبب ما أحدثته من بلبلة في النفوس وريبة في الاخلاق وانحلال في الشباب ، وسخرية بالفضائل السامية والمثل العليا . مما أدى إلى تدهور اجتماعي وإباحية خلقية عرضت الانسانية إلى الاخطار والمهالك وهذا ما يؤيد ما ذهب إليـــه العليم عبد الرحمن البدوي الاستاذ بجامعة عين شمس المصرية في رسالته التي نشرها عام ١٩٥٣ بعنوان هل يمكن قيام أخلاق وجودية ، قال : « إما أن تقول بالاخلاق ، فتفقد ذاتك ، وإما أن تقول بان لا أخلاق فتخـاطر بوجودك ، لكن « الوجودي »

الحق هو الذي يفضل أن يخاطر بوجوده على أن يفقد ذاته . » ويقول هذا الدكتور أيضاً : « الوجودي الحق .. أعدى أعدائه القانون ، وانه الحرية نفسها ... فلا معنى للواجب في عالمها . ولاتقيد لمدى انطباقها وانطلاقها ، وإنه الفعل الدائم أيا كان نوعه ونتائجه ، فإن معاني الاثم الصواب كلها لا مفهوم لها في هذا الباب .

« إننا معاشر الوجوديين لا نريد أن نتساق في أحلام البراءة والبكارة والطهارة ، بل نصيح ملء فينا : افعلوا ! افعلوا ! حتى ولو أدى ذلك إلى الخطر » .

ولنستمع إلى تصريح طالب بكلية الآداب في جامعة القاهرة نشرته صحيفة الجمهورية :

« إن الدين في نظري إيحاء خرافي ، والأديان فاشلة ... وأنا لا أستعملها !! ولا أتبع تعاليمها لأنها تعطلني ، وانا اؤمن بالوجودية وشعاري سأعلم ابني كيف يصبح بلطجياً ، وابنتي كيف تصبح فاجرة إن شاءت ! »[1]

وقد كان لهذه النظريات مجتمعة ومنفردة الأثر الفعال في تكوين المذهب المادي الذي يقود اليوم البشرية إلى الهاوية للأسباب التالية :

١ - يجعل هذا المذهب تاريخ الانسان على وجه الأرض معركة إمعاء وبطون وشهوات تخرب وتهدم لتمتلىء بالطعام والشراب وتستمتع بالملذات .

٢ - والمذهب المادي يثير حرب الطبقات على أساس من الحقد والانتقام غير حاسب حساب للمؤاخاة الطبيعية بين البشر .

٣ - والمذهب المادي لا يؤمن بالقيم الخلقية ، ما دام تاريخ الانسان صراع إمعاء وبطون ، وما دامت الميول الجنسية غريزة قاهرة لها سلطانها على الفكر والجسم ، إن الحياة الجنسية لا تحتاج إلى قيود شديدة .

---

(١) كلمة الدكتور بدوي والطالب الجامعي منقولة من كتاب ظلام الغرب ١٠٨ و ١١٤ .

وأما القيم الخلقية الأخرى كالصدق والوفاء والعفة والحشمة والأمانة فهي في الفلسفة المادية قيم موضوعية ينظر إليها بمنظار (المصلحة) (أو اللذة) فما الذي يدعو إنساناً جائعاً لأن يصبر على السرقة والعدوان مادام محتاجاً إلى الطعام ؟ وما معنى الوفاء والعهود والمواثيق مادامت لا تحقق مصلحة للأفراد والجماعات أو الحكومات ؟ قال لينين : « لا وجود عندنا للآداب المعتبرة ، فوق الجميع ، إنها أكذوبة سافرة فالآداب خاضعة عندنا لمنفعة نضال الطبقة العمالية » ..

وحين ينظر إلى القيم الخلقية بهذا المنظار ، يريد للانسان أن ينحط إلى مرتبة الحيوان ، من حيث لا يجتمع فرد مع آخر إلا وبينهما حاجز من الحذر والحيطة .

واي شقاء يحيط بالانسانية أبلغ من أن يعيش في هذه الأجواء ؟ واية قيمة للانسان في عقله وعلمه وذكائه إذا كان يعيش بأخلاق (الثعلب) في خلقه ومكره ودهائه ؟ ويعود إلى شريعة الغاب والناب ويطرد الأخلاقية جاعلاً الأولوية للسياسة والمنفعة حسب النظرية الميكيافيلية .

والنظرية المادية في نظرتها إلى العلائق الجنسية والقيم الخلقية ، تلك النظرة التي أسلفنا الحديث عنها ، تفقد عنصر التقدمية بمعناها الانساني الكريم ، إذ هي رجوع بالانسان إلى العصور الأولى التي كان ينطلق فيها وراء شهوته ومصلحته من غير نظر إلى كرامة المجتمع أو استبقاء للفضائل الخلقية فيه .

والنظرية المادية في قصر اهتمامها على الاصلاح الاقتصادي أو المعاشي أو المنفعة الشخصية أو العامة دون اهتمام أو مبالاة بالاصلاح الخلقي والروحي بل هي تعمل على نقيض هذا الاصلاح ـ تكون قد فقدت عنصر (الشمول) الذي ينبغي أن تتصف به الدعوات لتعيش وتزدهر وتفلح في إصلاح المجتمع إصلاحاً كريماً متناسقاً ...

وبذلك ونحوه وجد هؤلاء المفكرون أنفسهم في حيرة من أمرهم بعدما اقتنع كل منهم بإفلاس النظرية المتمسك بها وخطئها الواضح، ثم وجهوا إلى الناقد السؤال التالي :

مادمت قد سفهت جميع النظريات الفلسفية التي أتينا بها فهل عندك حلّ وطريقة لتأسيس أخلاق تسعد بها البشرية وتنقذها من الفوضى والاضطراب ؟

الناقد : انني لم أسفه هذه النظريات ، وإنما الذين سفهوها هم الفلاسفة والحكماء الذين أشاد بعظمتهم العالم المتمدين ! .

ومادمتم قد أفسحتم لي المجال لإبداء الطريقة التي أعتقدها فإنني استصرخ ضميركم أن تكونوا نزيهين غير مجادلين ، وطلاب حقيقة لا حملة لواء المعارضة ؛ فإن الانسانية بحاجة إلى نظام يكفل أمنها وسلامتها . والويل للمعاندين الذين يصرون على المجادلة بالباطل .. فإنهم يعرضون بعنادهم ورفضهم الحق الانسانية المعذبة إلى الخراب والدمار .

• • •

أقول : لابد قبل التحدث عن المسألة الخلقية من طرح الأسئلة الآتية عليكم :

١ – هل البشر وجد من نفسه على هذه الأرض ، أم لا بد له من خالق ؟

٢ – وهل هذا الخالق أوجد الانسان عبثا أم لغاية ؟

٣ – ثم هل هذا الخالق ترك الانسان وحده على الأرض بعد ما منحه العقل ، أم أمد بعض البشر بالوحي ؟ وجعل الانسان خالداً يحاسب بعد الموت ؟

٤ – وهل تأسيس الأخلاق على هذه الأسس من مبادىء ما وراء الطبيعة يضعف من قيمتها ؟

اسمحوا لي أن أجيب بنفسي عن هذه الأسئلة

١ – إن الإلحاد أمر طارىء على الانسانية فإن اكثر الفلاسفة من عهد سقراط وافلاطون وأرسطو إلى عهد كانت وباكون وباسقال من كبار المؤمنين بالله . وأقوالهم

وبراهينهم على وجود الإله أكثر من أن تحصى[1] ؛ وكلما تقدم العلم كلما كشف عن آفاق وعجائب تدل دلالة قاطعة على عظمة الله وقدرته .

وهذا الالحاد الذي ابتلي به العالم في العصور المتأخرة ، إنما كان نتيجة رد فعل للتعصب الديني ودسائس رجال الدين في أوربا وتعاونهم مع قوى الطغيان والمستبدين من الملوك الأمراء على طبقات الشعب ، مما دفع كثيراً من المصلحين إلى الجحود بكل ما يدعي به رجال الاكليروس ، ليقطعوا عليهم خط الرجعة وينجوا من مداخلتهم ومافرضوه لأنفسهم من سلطة زمنية وقادوا بسوء تصرفهم بها الانسانية عصوراً إلى الوراء حتى كانت حجاباً كثيفاً ضد العلم والحضارة .

ولما تقهقر رجال الدين الغربيون إلى الوراء وقبعوا في كنائسهم ، عاد العلماء إلى تمجيد الإله والاقرار بالروح وخلودها ، بما لا يدع مجالاً للشك في الايمان بعالم ما وراء الطبيعة . قال الفيلسوف الكبير المعاصر انشتاين : إن « أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والاظلام ؛ إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حي كميت ! إن خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه ، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره ، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة ، أحكم ماتكون ، ونحس أن وراءه شيئاً هو الجمال ، أجمل ما يكون ، وهي حكمة ، هو جمال ، لاتستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا في صور لها بدائية أولية ، وهذا الادراك للحكمة ، وهذا الاحساس بالجمال ، في روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق . »

ويقول اينشتاين أيضاً وهو أشهر العلماء المعاصرين في الكون وظواهره وأحقهم بالكفران كان علم يدعو إلى الكفر ، وأولاهم باتباع ما اعتاد بعض علماء الغرب ، ومقلدوهم من أهل الشرق ، من إغفال ذكر الله فيما يصطنعون من بحوث يحسبونها علمية بتجريدها من ذكر الخالق العليم الحكيم ، وهذا من أجهل الجهل وأشد الغرور لو كانوا يعلمون .

---

(١) راجع كتابي : أنا مؤمن بالله لماذا . (م)

يقول انشتاين : « إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمي وأنبل حافز .

ثم يقول هذا الفيلسوف : « إن ديني هو إعجابي ، في تواضع ، بتلك الروح السامية التي لا حد لها ، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام ، إن هذا الايمان يؤلف عندي معنى الله[1] » .

هذا — وان تقدم العلوم الروحية والتلبائية ودخولها الجامعات من أعظم الأدلة على حقيقة هذه العلوم وما تذهب إليه من خلود النفس ، مما يثبت ان الله سبحانه لم يخلق هذا الكون عبثاً بل لغاية .

وهذا الاعتقاد يدفع الانسان إلى السمو والتخلق بالمثل العليا بخلاف النظرية المادية التي تقول ان أصل الانسان من الفناء وإلى الفناء يصير ، مما يدعوه لاتهام الشهوات والانهماك فيها كالحيوانات .

ثم انه ليس من المعقول أن يخلق الله سبحانه الانسان في عقله الجبار ويكلفه بأعمال جسيمة ثم يجعل مصيره الفناء ! كما أنه ليس من المعقول أيضاً أن يترك هذا الانسان لعقله وقد ثبت لنا عجزه وقصوره وتأثره بالعاطفة وغيرها ، فلا بد أن يوحي إلى بعض عباده الصالحين برسالات يهديهم اليها ، وهؤلاء الرسل هم الذين يهدون الناس إلى طريق الحق وسبيل السعادة .

وقال أحد علماء الاجتماع في أمريكا : « إن الذي وصلت اليه بعد كل دراساتي في الاجتماع جعلني أوقن أن الجنس البشري ضعيف لا يؤتمن على نفسه ، محدود تجعله حدوده يتعثر ويتغير ويهدم مابناه ، وتقتضي العدالة الالهية لان يتدخل ليضع للذين خلقهم نظاماً تهديهم سواء السبيل ، وقد أصبحت اعتقد ان هذا التدخل ضرورة يفرضها العدل والرحمة بهذا الانسان الضعيف[2]

---

(١) مع الله في السماء ٢٦٥ و ٢٦٦

(٢) مجلة المسلمون (ع ٦ م ٥ ص ٩) .

ومما أدى إلى الالحاد بعض العلماء التجريبيين الذين بهرتهم معجزات العلم التجريبي واتخذوا نتائجه في كل شيء « قضية مسلمة لا تحتمل الشك أو التأويل ؛ أما مالا يخضع للعمل فهو بنظرهم خرافة ! وهو على الأقل شيء ساقط من الحساب . ولما كان الله بنظرهم لا يدخل إلى المعمل ، ولا يخضع للتجريب العلمي فقد استغنوا عنه وأعلنوا أنه غير موجود !

وسرت العدوى من الغرب الظافر إلى الشرق المستعبد ، فقامت البيغاوات والقرود ، تصيح — عن غفلة أو عن سوء نية — ان اتبعوا الغرب لعلكم تفلحون ، واطرحوا عنكم دينكم وروحانيتكم وأخلاقكم وصفاء سريرتكم ، واستبدلوا بها المنطق المادي والاخلاق المادية ، فذلك أجدر أن تتحرروا ، وتخرجوا من الظلمات إلى النور !..

وما يستطيع أحد أن يجحد المخترعات الحديثة الجبارة التي أنتجها العلم ، فوفر الوقت والجهد وضاعف طاقة البشر على الانتاج .

ولكن الناس لم يقتنعوا بالحدود المعقولة للعلم التجريبي ، فراحوا يجربون في كل شيء ، ولو كان لا يقبل التجريب أما الميدان الطبيعي لهذا العلم هو المادة ، لانها تخضع خضوعاً كاملاً لكل ما يجري عليها من تجارب ، وأهم من ذلك انها تستجيب دائماً بصورة واحدة للمؤثر الواحد ، ولا تتغير استجابتها ما دامت الظروف المحيطة بها لا تتغير ، لانها لا تحس ولا تفكر ، ولا إرادة لها في الاستجابة التي تصدر عنها ، وإنما تخضع دائماً للقوانين الطبيعية والكيميائية التي تحكمها ، ومن ثم نستطيع أن نعتمد على النتائج التي نحصل عليها من البحث .

ومع ذلك فما زال العلم كما أسلفنا لا يقطع برأيه الاخير في كثير من المسائل التجريبية التي تتصل بالمادة ؛ وقد كان اكتشاف الطاقة الذرية حدثاً عنيفاً في تاريخ العلم ، لانه فتح السبيل لنظريات علمية كثيرة يخالف بعضها بعضاً ، كان العلماء قد تواضعوا عليه من قبل . وظنوا أنها القول الفصل .

« ولكن شهوة التجريب لم تقف بالتجريبيين عند المادة ميدانهم الأصيل ، بل راحوا يجربون في كل شيء وكل ميدان حتى عن" لهم في مبادىء هذا العصر ان يجعلوا النفس مادة للتجريب يخضعونها لتجارب المعمل ويستنتجون من هذه التجارب قوانين يحكمون بها النشاط النفسي ويفسرون بمقتضاها الإنسان والانسانية .

وبهر الناس وصفقوا معجبين : ها هو ذا العلم يقهر الأسرار واحداً إثر واحد ، ويخضع حتى المعنويات لتجارب المعمل ليصل فيها الى حقائق موضوعية ثابتة تحسم الجدل وتقطع السبيل على المناقشات الفلسفية الفارغة .

والتفكير في النفس الانسانية على هذا النحو تفكير عجيب فقد يستطيع الباحثون ذات يوم أن يصلوا الى نتيجة نهائية قاطعة في المظاهر المادية لهذا الكون ، أما النفس الانسانية فهي عالم واسع غير محدود ، ومازالت البشرية منذ مولدها إلى هذه اللحظة تتحدث عنها ، وتحاول الوصول إلى كنهها في آدابها وفنونها وفلسفتها واديانها واجتماعاتها ، فلا ينتهي الحديث ولا ينقطع عند نقطة معينة ، وإنما يتقبل البحث كل ماقيل وكل ما سيقال ، ويبقى الباب مفتوحاً بعد ذلك للمزيد ، وكل كلمة صائبة تقال في فن أو علم فإنما تلقي شيئاً من الضوء على هذا العالم الواسع ويتقبلها الناس بالاعجاب والشكر ، لأنها تنفذ بهم إلى أعماق هذا المجهول ، فتطلعهم على بعض آياته الكبرى ، ولكنهم كانوا على صواب حين ظنوا أنهم لم يصلوا إلى كل أسرارها ، وإن من بين هذه الأسرار ما لا يمكن النفوذ إليه عن طريق العلم المحسوس لا اليوم ولا غدا ، لأنه من أسرار الخالق التي لم يشأ أن يطلع عليها مخلوقاته ، وأكبر تلك الأسرار واعصاها على البحث مشكلة الروح .

حين كان الناس على سذاجتهم – مثليا - يؤمنون بأن في النفس جوانب تتصل بالمجهول الأكبر وتعتصم مثله بالغيب الأبدي كانوا على صواب .

ولكن العلم التجريبي أفسد هذه السذاجة وزعم أنه القادر على كل شيء وإن خرافات الماضي ، وأساطير البسطاء من المؤمنين ، أما ان تخضع للعلم والتجربة

والا فلتندثر إلى الأبد وتخل مكانها للعلم الصحيح ، مع ان أبعد الطرق عن الوصول إلى نتائج قاطعة في أمر النفس هو العمل بالذات ، لأن منهج القائمين بالبحث فيه والأدوات الميسرة لهم هي أبعد ماتكون عن الاحاطة بكل الجوانب البشرية !

ادوات المنهج التجريبي هي الحواس ، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو عن طريق الآلات والأدوات التي تمنحها دقة فائقة وتصل بها إلى أغوار سحيقة كانت تعجز بمفردها عن إدراك كثير مما يجري بداخلها . ولكن هذه الأدوات على دقتها البالغة ليس من شأنها أن تفتح الميادين كلها للبحث التجريبي ، وإنما وظيفتها فقط ان تساعد الحواس في الميدان الذي يمكنها بطبيعتها ان تعمل فيه ، ومن ثم فإنه يستحيل على العالم التجريبي مهما أوتي من الادوات بأن يجرب إلا ما يقع في حدود الحواس ، وعلى ذلك نستطيع أن نقدر إلى أي مدى يمكن للنفس الانسانية ان تدخل المعمل ، وأي قدر منها يكون صالحاً للبحث التجريبي ، إنه ذلك القدر الضئيل الذي يتصل بالجسد وتصلح لقياسه الآلات والأدوات .

وإذا كان التجريب يصلح لتفسير سيكلوجية الحيوان فهو غير صالح للوصول إلى فكرة شاملة عن سيكلوجية الانسان ، ذلك أن كيان الحيوان كله او معظمه على أقل تقدير كامن في جسده ، ولا يكاد يقع من نشاطه شيء خارج الجسد ، أما الانسان فأدنى نشاطه هو الذي ينبع من الجسد ، وأنا اتحدث هنا عن النوع لا عن الكم .

وقد كانت الأمانة العلمية تقتضي ان نقول للعلماء الأجلاء إننا لا نجرب من من جوانب النفس إلا ما يتصل بالجسم فحسب ، ولا نتعرض للجوانب الأخرى ولا نصدر أحكاماً شاملة على النفس الانسانية في الوقت الحاضر على الأقل ، الى ان تتاح لنا وسائل أخرى نصل بها إلى ما نريد .

ولكنهم – سامحهم الله – لا يقولون ذلك ، لأن معنـاه ان يعترفوا بقصور « الإله الجديد » عن الاحـاطة بشيء ممـا في الكون العريض ، وأيسر من ذلك عليهم أن يزعموا ان النفس الانسانية تنبـع من الجسد ، وأن كل المشـاعر البشرية إنمـا هي صور نفسية لحركات جسدية ، فالجسد هو المنبـع وهو المحرك والموجه لكل النشاط الانساني .

وإذا كان العلماء النظريون يقولون : إن هناك نزوعاً او انفعـالاً نفسياً يؤثر في الجسد ، فينتج عنه حركة جثمانية تهدف إلى تحقيق هذا النزوع ، او ارضاء الانفعال فإن التجريبين على عكس ذلك يقولون : إن هناك إدراكا لحـالة خارجية معينة تنتج عنه بطريقة تلقائية حركة جسدية : إفرازات كيميائية أو نشاط كهربي يؤثر في النفس فينشأ عنه شعور يحسّ ؟ أرأيت أرأيت ؟

يقول قائلهم : إنني سمعت خبراً محزناً فبكيت فنشأت من ذلك عاطفة الحزن ، فالحزن نشأ من البكاء ، أي من الحركة الجسدية ، وليس العكس مع إن الانسان يحزن فتنهمر دموعه كما يقول العقلاء من عباد الله .

ويقولون : إنني رأيت الأسد فجريت فنشأ من ذلك الخوف لا أنني خفت فجريت..

ولا يحسبن أحد أننا نتجنى عليهم بنسبة هذا الكلام اليهم ، فها هو ذا رائدهم وليم جيمس يقول : « إن الفكرة التي نتخذها عن العواطف عادة هي أن الادراك العقلي لشيء ما يستثير الحالة الوجدانية التي نسميها العاطفة ، وإن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هي التي يتولد عنها التعبير الجسدي ، ولكن نظريتي على العكس من ذلك ، هي أن التغيرات الجسمية تأتي لاحقة مباشرة لادراك المؤثر ، وان الاحساس الذي تشعر به نتيجة لهذه التغيرات هو العاطفة ، من الجسد إذن تنبع النفس ، وليس العكس هو الصحيح .

ولو قالوا : إن هناك حلقة دائمة الاتصال بين الجسم والنفس في داخل الكيان الانساني ، فيؤثر الجسم في النفس ، ويؤثر النفس في الجسم دواليك ، وإنما يختلف مقدار تأثير أحدهما في الآخر حسب نوع الاحساس ومصدره وغايته ، فيكون الجسم أحيانا هو الغالب ، وتكون النفس أحياناً هي الغالبة ، أو يكون أحدهما وحده هو مصدر الشعور - لو قالوا ذلك لكانوا أقرب إلى الصواب فالجوع مثلاً حركة جسدية خالصة تؤدي إلى مشاعر نفسية وعقلية .

والرغبة في التعلم حركة نفسية خالصة (أو نفسية عقلية) تؤدي الى تأثيرات جسدية .

وبين هذين الطريقين تقع مشاعر كثيرة يشترك فيها الجسم والنفس بنسب مختلفة في كل مرة ، ويبقى بعد ذلك كله على أي حال ، جانب هو أرقي جوانب البشرية وأحقها بالمعرفة ، والتسجيل لا يقع فى محيط الجسد على الاطلاق ، واعني بذلك الجانب الروحي من الانسان .

هذا الجانب لا يمكن للمعمل أن يبحثه لأن الحواس لا يمكن أن تدركه ، ومن ثم فالروح (كما يقول الماديون) بالنسبة للمعمل خرافة كخرافة وجود الله سواء بسواء ، لأنها لاتخضع للتجريب ، وعلى الرغم من ان التلبثي وهو من معجزات الروح الباهرة قد تقرر حقيقة علمية ، إلا أن التجريبيين مايزالون على عنادهم في انكار الروح ، يحاولون عبثاً أن يفسروه بطريقة مادية تتفق مع نظريتهم الواقعية[1] »

وفيما يلي نسوق قليلاً من كثير من آراء الفلاسفة فيما ذهبنا اليه من آراء :

قال أفلاطون : (١) نحن لا نصل الى الفضيلة إلا بالهام وبصيرة يشوبها قبس إلهي علوي[2] .

(٢) العقل الانساني ، وهو من طينته المهينة ، يتجه أصلا نحو المعقول ، نحو الخير ، وهو منبع النور[3] .

---

(١) عن كتاب الانسان بين المادية والاسلام باختصار ص ٧٤ - ٥٧ .

(٢) مبادىء الأخلاق للأستاذ عبد السلام العبسي ص ٩٣ . (٣) المصدر نفسه ص ٦٥ .

٣ ـ ما هو الطريق الذي تسلكه النفس الانسانية لتحقيق الفضيلة ولنحصل على الخير : الالمي ؟ إن الطريق السليم ، بنظر افلاطون ، هو أن تتخلص النفس من الاطراب الجسمي الناتج عن حلولها في الجسم واتحادها معه اتحاداً موقوتاً ، لتعود إلى ذلك النظام الكوني المعقول الذي يمثل طبيعتها الصحيحة [١]

٤ ـ ان تبعة النفس الخلقية كبيرة وقد تتجاوز حدود الحياة وتتعداها الى ما بعد الموت . فالفضيلة والرذيلة لا يقرران سعادة الانسان أو شقاءه في هذه الحياة فحسب ، بل يقرران مصيره الأبدي ، فالنفوس ينتظرها اختبار شديد بعد الموت[٢] .

وديكارث يعتبر المبادىء الخلقية كالمبادىء العقلية ، إنما تتعلق باختيار حر من قبل الإله[٣] .

وبعد هذه التمهيدات نأتي على ذكر النظرية التي نراها صالحة لتأسيس الأخلاق .

النظرية العقلية الميتافيزيكية[٤]

يتفق جميع الفلاسفة العقليين الميتافيزكيين في السعي الى استنتاج الأخلاق من الفلسفة العقلية ، وتأسيسها على مبدإ الكمال والسعادة كما نرى ذلك لدى افلاطون وارسطو وديكارت ولا يبنيز ومالبرانش ، وكذلك مع بعض التحفظات عند عدة من كبار تلاميذ (كانت) مثل فيختة وهيكل وشلينغ ، فكل هؤلاء الفلاسفة يدعون بأن الحياة الخلقية تقوم على التفكير الفلسفي الذي يدرك الانسان بواسطته حقيقة جوهره وطبيعته الخاصة ، ويعرف العلاقات التي تربطه بالكون ...

يقول أفلاطون : إن إدراك فكرة الخير أسمى جميع الفضائل ، وان هذا الادراك وحده يكفل للانسان السعادة الحقيقية ، فإن العقل لا يمكن أن يبلغ

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨ .

(٣) مبادىء الأخلاق لحافظ الجمالي ص ٩١ .

(٤) لقد اتخذت النظرية العقليه الميتافيزيكية الغربية رغم مافيها من أخطاء كتمهيد لايمقل منها الى النظرية الميتافيزيكية الاسلامية عن طريق الاستدراج .

كمال تطوره إلا إذا اتجه الى مبدإ الخير الذي هو منبع كل حقيقة واصل كل وجود ومصدر كل جمال واساس كل أخلاق .

وهذا الخير ليس مثلاً اعلى مجرداً يتخيله الانسان ، بل انه كائن موجود في ذاته ، إن افلاطون يسميه فكرة ، ولكن هذا على رأيه إنما هي كائن ذاتي . ويقول فلاسفة آخرون إن هذا الخير المطلق إنما هو : (الله)

إن أسمى فضيلة هي في إدراك هذا الخير والكمال الالهي ، وليس للفضائل الأخرى من وظيفة سوى تأمين ما يلزم للروح من توازن وانسجام حتى تتوصل إلى هذه الفضيلة الاساسية .

هذه الفضيلة هي السعادة الحقيقية ، واذا حللنا مفهوم السعادة فإننا نرى إنها تدل : (أولاً) على ان المسرات التي تتألف منها يجب أن تكون أعلى المسرات ، وليس السرور كما يقول لايبنتز سوى الشعور الذي يرافق الانتقال من كمال الى كمال أعظم منه ، ولذلك فان أعلى سرور هو الذي نشعر معه باننا قد بلغنا أسمى كمال وهو ادراك الافكار الابدية الخالدة .

وتتضمن السعادة ثانياً فكرة الاستقرار ، والثبات واذا كانت الخيرات الحسية الارضية المادية زائلة لابقاء لها فإن فكرة الخير المطلق لا يمكن ان يقارنها شيء في الثبات والاستقرار لانها هي الكائن الابدي ، ثم ان السعادة تفيد (ثالثاً) فكرة الاطمئنان . والمعروف عن الانسان انه يشعر بالحاجة غير المتناهية الى الحب والمعرفة والعمل ، ولديه القوة لان يسمو فوق جميع الاشياء المحدودة التي تعرض له . ولذلك فانه لا يمكن أن تتحقق رغباته إلا عن طريق معرفة الخير المطلق ومحبته (رابعاً) وأخيراً فان مفهوم السعادة يتضمن فكرة الانسجام سواء في أنفسنا أو بيننا وبين الآخرين أو بيننا وبين الكون وفي الحقيقة فان كل واحد منا مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع غيره من الذين يسعون الى المثل الاعلى نفسه وهو السمو إلى

الكمال والفضيلة العليا والتفتيش عن هذا المثل الاعلى يربطنـــا مع مبدأ الكون ويقربنا إلى الله .

وهكذا فانه ليس هناك مقياس مشترك بين الملذات الحسية وبين هذه السعادة المعنوية . وهذا أفلاطون يقول بأن الحكيم الصالح ولو كان فقيراً ومريضاً ومحروماً من الاولاد ومحتقراً من مجتمعه بل كان معلقاً على الصليب فإنه أسعد من الجاهل الشرير الغارق في النعيم والخيرات ، المتمتع بالصحة التامة والمحاط بالاولاد والمحترم من مواطنيه . وقد أراد بذلك أن يشير إلى البون غير المتناهي الذي يفصل بين الخيرات الحسية الوهمية وبين المسرات المعنوية التي يشعر بها الانسان الذي عرف طبيعة الحقيقة وعاش حسب نظام الكمال الذي يبينه لنا العقل

ان النظريات العقلية ـ المتافيزيكية تدعي بأنها تقوم باشباع حاجات الانسان الحسية والعقلية، فان الانسان بفضل عقله يعمل بما تقتضيه الحقيقة ويتوصل بذلك إلى السعادة المعنوية التي تشعر فيها الروح بالانسجام والنظام والحرية والقوة والكمال وكذلك باللذة والسرور الدائمين وقد قال لا يبنيز ان السعادة واللذة والحب والكمال والقوة والحرية والانسجام والنظام كلها مرتبطة بعضها ببعض وقال « سبينوزا » إن السعادة ليست جزاء الفضيلة بل إنما هي الفضيلة نفسها .

وفي الوقت نفسه فقد تدعي هذه النظريات بأنها كفيلة بتأمين الحياة الاجتماعية .

فان البشر الذين ينصرفون إلى حياة التأمل والتفكير ويتقربون جميعاً من الخير المطلق الذي هو الله يرتبطون بذلك فيما بينهم أيضاً ويعيشون حياة أخلاقية حقيقية تؤلف بينهم وتهيىء المجتمع الانساني الحقيقي أو « المدينة الفاضلة » كما يقول الفارابي . وفي انتظار تحقيق هذا المجتمع الأخلاقي فان الحكيم الصالح يقبل بجميع الواجبات التي يفرضها عليه المجتمع الارضي الذي يعيش فيه فيقوم بواجبه كوالد وزوج وصديق ومواطن . وذلك لأن تأمل الحكيم يجعله يرجع النظام الاجتماعي إلى نظام الكون العام الالهي ، ولذلك يجب على كل واحد أن يقوم بالدور الذي خلق له على أكمل وجه مهما كان هذا الدور حقيراً أو عظيما طويلا او قصيرا .

على أنه لا يجوز أن نفصل هذه الحياة الارضية عن المبدإ الإلهي الذي تقوم عليه والذي نسعى اليه ولذلك فان الاقتصار على الفعالية الاجتماعية لا يمكن أن يجعل لحياتنا قيمه إنسانية حقيقية .

وقد سبق لنا أن ذكرنا ما قاله أفلاطون عن المواطنين الذين يقتصر همهم على أن يخدموا المجتمع فحسب ، فلا يستحقون أكثر من أن يعيشوا في جسم نحلة التي هي أيضاً حيوان اجتماعي يقوم بواجباته الاجتماعيه حق قيام !

وهكذا فان النظريات العقليه ـ المتافيزيكية لا تنظر إلى الخير كمفهوم اجتماعي أو كمحصول العقل الإنساني ، بل تعتبر كائناً ذاتياً هو الذي يسيطر على الكون . والقانون الأخلاقي انما هو إرادة هذا الكائن وليس الواجب أمراً مفروضاً علينا بل ان مافي الواجب من الزام انما يرجع إلى سحر المثل الأعلى الذي يجذبنا اليه ويؤثر في إرادتنا متى عرفناه واجتبنـاه . فالخير هو الحقيقة العليا وهو السبب في وجود كل ما هو كائن .

مناقشة النظرية العقلية المتافيزيكية

أنصار النظريات السابقة : ١ ـ يقول بعضهم إن هذه النظرية يقتصر اهتمامها على حياة التأمل والتفكير ، فهي لذلك تؤدي إلى إهمال العمل .

الناقد : في الحقيقة أن أصحاب هذه النظرية يفضلون بصراحة الحياة الروحانية على العقلية العملية ، ويطلبون من الانسان أن لا يخصص إلا أقل ما يمكن من الوقت لاشباع حاجاته الجسمية ، وأن لايفسح المجال لازدياد هذه الحاجات بصورة اصطناعية (وهذا أمر جدير بالاعجاب ، وهو يعتبر مزية لهذه النظرية لا نقداً لها ، فإن الروح لما كانت خالدة وكان الجسم فانياً ، لذلك كانت الروح موضع اهتمامها .

وعلى كل حال فإن التوفيق بين الحياة الروحية والحياة المادية هو أهم ما يدعو إليه الدين الصحيح . فإن لكل من الافراط والتفريط مساوىء لا يقرها الحق .

أنصار النظريات السابقة : ٢ - ويدعي البعض بأن الانصراف إلى حياة التأمل والتفكير يدل على الأنانية لأن الذين يقتصرون على ذلك لا يؤدون شيئاً من الخدمة إلى الآخرين مقابل ما يقدمه لهم هؤلاء من وسائل الحياة المادية ، بل وما يقتبسونه عنهم من الغذاء الفكري أيضاً ...

فهل يمكن قبول أخلاق تساعد على مثل هذه الأنانية الطبقية ؟

الناقد : ولكن هذا الانتقـــاد ليس صحيحاً ، إذ لا يمكن القول بأن حياة التأمل والتفكير تمنع من العقلية العملية وتحول دون القيام بالواجبات الاجتماعية .

ومن جهة ثانية ، فإن الانسان الذي يسعى إلى تثقيف عقله ويبحث في العلم لأجل العلم المؤدي للعمل ، يقوم أيضـــاً بخدمة المجتمع ولو في شكل آخر مقابل الفوائد التي اكتسبها منه .

إن البشر لا يحتـاجون إلى الخبز وحده للمعيشة ، بل إلى الأفكار والحقـائق أيضاً . ومن وظيفة الحكماء أن ينشروا الحقائق ويساعدوا على تهذيب الاخلاق ، وان يكونوا فوق ذلك قدوة لغيرهم من البشر في التحـرر من قيود الخيرات الوهمية الزائلة .

(ومهما يكن من أمر النظرية الميتافيزكية فإن المتمسكين بها إذا اهمل بعضهم واجباتهم نحو المجتمع وأضاعوا حياتهم بالتـأمل والفلسفة ، فـان الذنب ليس ذنب النظرية الميتافيزكية بل ذنب هؤلاء الذين أساؤوا فهمها . فإن الدين الإسلامي مثلاً يدعو الى الاهتمام بالشؤون العامة (خير الناس أنفعهم للناس !)

أنصار النظريات السابقة : ٣ – إن أهم انتقاد يوجه إلى هذه النظرية هو الادعاء بأنها تسعى إلى تأسيس الأخلاق على مبدإ وهمي ، فان هناك كثيرين من المفكرين يذهبون إلى أن كل بحث في مسائل ما بعد الطبيعة محكوم عليه بالفشل والعقم .

ويدعون أيضاً بأن العقل البشري لا يستطيع أن يتوصل إلى أكثر من معرفة العلاقات بين الحوادث الواقعة ، وقوانين مظاهر الكون . لذلك فإن استناد الأخلاق إلى ما بعد الطبيعة كما في هذه النظرية معناه تأسيس الحياة الأخلاقية على دعائم واهية .

الناقد : ويمكن الرد على هذا الاعتراض بما يلي :

أ – إن الباحث في قيمة العقل وتعيين حدود المعرفة التي يمكن أن يتوصل اليها لم تثبت بعد ببراهين قطعية استحالة كل فلسفة ميتافيزيكية . وقد اثبتت العلوم الروحية اليوم حقيقتها وأصبحت علمية دخلت الجامعات لتدرس إلى جانب العلوم المادية بالطريقة التجريبية .

قال العلامة الشهير (هنري سيد جويك) المدرس بجامعة كبردج في خطبة رئاسة جمعية المباحث النفسية سنة ١٨٨٢ : « من الامور الفاضحة ان يتناقش الى الآن في صحة الحوادث الروحية التي أعلن تصديقه بها عدد عظيم من الشهود الاخصائيين ، واهتم غاية الاهتمام بحل مسألتها عدد آخر منهم ، وان يحتفظ العالم العلمي مع كل هذا حيالها بالأفكار الساذجة . » وقد نشر العلماء امثال الفرد روسل ، واوليفردوج وكروكس رئيس جمعية المباحث النفسية ٤٣ مجلداً في اثباتها بصورة تجريبية .

ب – (إن العقل النظري بحسب الفيلسوف كانت – لم يتنكر لمسائل ما وراء الطبيعة ، بل انه يعجز عن ادراكها وانه لا يستطيع أن يبين لنا شيئاً عن حرية الإرادة

وخلود النفس ووجود الله لأنه ليس من اختصاصه ، فهو يبحث دائما في العلاقات والحوادث الظاهرة) .

(وعجز العقل النظري عن إدراك مسائل ما وراء الطبيعة ، لا يدل على كونها وهمية ، فإن العلم عجز عن إدراك كنه الأثير والكهرباء وغيرهما ، ولكن ليس معنى ذلك عدم وجود هذه القوى والعناصر فإن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود !

ج – يقول كانت إن العقل النظري المنطقي إذا عجز عن اثبات الحقائق الثلاث (حرية الارادة ، خلود النفس ، وجود الله) بصورة علمية نرى العقل العملي يؤكد لنا ضرورة وجودها بصورة وجدانية وحدسية – لأن الانسان باعتراف الفلاسفة ما أوتي من العلم إلا قليلا .

– يصرح كانت في كتابه نقد العقل العملي بأن الأخلاق ، التي لم تكن تحتاج إلى الاستناد إلى ما بعد الطبيعة قادرة بدورها على وضع الاساس لعلم ما بعد الطبيعة .

إن التفكير الميتافيزيكي من شأنه أن يجعل رابطة بين الحياة الاخلاقية وبين نظام الكون ، وان يوسع بذلك أفق الاخلاق للبشرية ..

أنصار النظرية السابقة : هذا ويقول بعضهم أنه من الممكن تأسيس الأخلاق على أسس متينة دون الاستناد إلى ما وراء الطبيعة .

الناقد : ويمكن الرد على هذا القول بأننا كنا رأينا النظريات الكثيرة التي أرادت تأسيس الاخلاق على أسس واهية كاللذة والمنفعة والمجتمع وغيرها ، وأوضحنا الاعتراضات التي وجهت اليها . ويمكننا أن ننسب إلى هذه النظريات الفوضى الأخلاقية والمطامع الشهوانية التي تعم اليوم العالم والتي تهدده بالانهيار والاضمحلال .

أنصار النظرية المادية : ٧ – إن النظرية الميتافيزيكية تبحث عن الاخلاق بالتجرد عن الواقع ، إذ أنها تود أن تستنبطها من العقل فقط دون أن تلجأ إلى التجربة والمشاهدة . وهذا باطل لان هناك واقعاً أخلاقياً لايمكن إهماله . فالبشر لم ينتظروا

الفلاسفة كي يشرعوا لهم قوانين أخلاقية ، بل ساروا عليهـا من أنفسهم ، ومن تلقاء ذاتهم .

الناقد : هذا صحيح إذا كانت النظرية الميتافيزيكية تحاول الحصول على الاخلاق من استنتاج الفلاسفة ، انما نحن نود هنا استنتاجها من الدين الصحيح وهو الإسلام وهو من وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد خلق الله البشر ويعلم ما يفيدهم وما ينفعهم وقد كان الأخلاق الاسلامية أعظم الفضل في رقي المسلمين الذين تمسكوا بها بحق وحماسة وصدق .

أصحاب النظريات السابقة : ٨ – إن هناك أنانية في انتظار المؤمن للمكافأة في الحياة الاخرى . ان المؤمن الحقيقي يعمل بتعاليمه لمجرد الحب الصرف دون أن ينتظر منه جزاء ولا شكوراً .

الناقد : في هذا النقد مغالطة صريحة ، فإن الانسان مهما سما لا يستطيع أن يهمل غاياته ومصالحه ، ولكن هناك فرقاً بعيداً بين أنانية المؤمن الذي ينتظر الثواب يوم القيامة ، وبين أنانية المرء الذي يسارع إلى اشباعها مريعاً في هذه الحياة ، ولو اضرت بالآخرين . فان الاول يهمل مصلحته الشخصية ويسعى لخدمة غيره حتى آخر رمق من حياته دون أن يفكر بجزاء أو شكور من الفرد أو الجماعة ، لان المؤمن الحقيقي يعمل في الدنيا مجرداً عن كل مصلحة . وانما ردت النظرية النفعية لانها تدعو الى انتهاز المنفعة بأي زمن كان دون النظر الى العواقب .

أصحاب النظريات السابقة : ٩ – إن الإيمان بالجزاء الديني يوم القيامة له فائدة لدى المؤمنين ، ولكنه يخلو من الفائدة لدى الذين لا يؤمنون بالحشر والنشر .

الناقد : أقول : لوصح هذا النقد لبطل تطبيق أية نظرية من أجل أن تطبق على الجميع ، فإن المذهب الاجتماعي مثلاً لا يمكن تطبيقه ، على حد هذا النقد إذا كان هناك من لا يؤمن بهذا المذهب ، وقل كذلك في جميع النظريات. زد على ذلك ان المؤمن يأخذ بالاسلام على انه دين وغير المؤمن به على انه تشريع ونظام .

أصحاب النظريات السابقة : ١٠ – وأعظم نقد يوجه إلى النظرية الخلقية الميتافيزكية هو أنه إذا أريد تأسيس الاخلاق على الدين ، فأي دين نختار مادامت الاديان تختلف في أخلاقها .

الناقد : الصحيح ان هذا الاعتراض ليس بالعائق لتحقيق هذه النظرية العظمى ، مادام هناك مقاييس علمية وتاريخية وعقلية لمعرفة الاديان الصحيحة من الاديان الموضوعة والمحرفة . الاديان التي أعزت جماعتها ومدنتهم وجعلتهم خير أمة أخرجت للناس ، من الاديان المحرفة والتي نسخت مع الايام وكانت سبباً في انحطاط اتباعها وجعلهم في جهل سحيق لما تمسكوا بها !!

أنصار النظريات السابقة : ١١ – يقول بعض المعترضين ان تأسيس الاخلاق على الدين من شأنه أن يثير الضغائن والمنازعات بين المواطنين .

الناقد : إن الدين الصحيح يعظي الحرية الدينية ويغرس التسامح بين أتباعه . وأقول لهؤلاء المعترضين على سبيل المثال كان في البلاد ثلاثة أحزاب : الشيوعي والبعث العربي الاشتراكي ، والقومي الاجتماعي ، وكانت قائمة على أساس لاديني ، فلماذا لم تتوحد ؟ ولماذا قد بلغ الخلاف بينها القمة ؟!

أنصار النظرية السابقة : إن اسناد الاخلاق الى ما وراء الطبيعة عمل لايرضي العلماء التجريبيون الذين لا يؤمنون إلا بالقضايا الحسية .

الناقد : لقد كان هؤلاء العلماء في غرور عميق حينما كانوا يصرحون بمثل هذه التصريحات التي أصبحت في هذا العصر من السخف بحيث تبعث على الضحك والسخرية ، وإن كانت لا تزال في معاهدنا العربية – ويالأسف – تعتبر حقائق علمية ثابتة ، ولنستمع الآن إلى بعض شهادات علماء الطبيعة وعلماء النفس قال العلامة غوستاف لوبون في كتابه تحول المادة : « ان الصرح العلمي الذي كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل

من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة وصارت المتناقضات والمجالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون . وأدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون عما إذا كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينية كمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضاً واهية تحجب تحت غشائها جهلاً لا يسبر له غور . »

وقال العلامة (لوسيان بوانكاريه) لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً يقيناً ، ويجمع عليها العلماء التجريبيون اجماعاً عاماً بل يسود اليوم على عالم الطبيعة نوع من الفوضى ! »[1]

ولنستمع الآن إلى العالم الكبير الدوس هكسلي في كتابه الوسائل والغايات (١٧٩) : « وقد دلت البحوث العلمية الحديثة على أن العالم الذي ندركه بالتجارب الحسية والادراك الفطري العام ليس إلا جزءاً صغيراً من العالم بوجه عام ، وهو جزء صغير منه لأننا نعيش في نقطة ضئيلة من الكون الواسع ، ومعرفتنا بالأجزاء النائية من الكون ضيقة محدودة ، ثم إن الاعضاء التي نستخدمها في الاتصال في العالم الخارجي لا تستطيع فهم الحقيقة كلها ، وحتى ان استطعنا أن نقوم برحلات كشفية في عالم الكواكب ، فسنظل عاجزين على أن ندرك من الذبذبات الكهربائية المغناطيسية ما هو أقصر من البنفسجية ، أو أطول من الحمراء ، وسنظل عاجزين عن رؤية الجزئيات أو الاحساس بها برغم حجمها الكبير ... »

أقول : إن نظرية ما وراء الطبيعة الاخلاقية تمتاز على غيرها من النظريات بالخصائص التالية :

١ ـ تجعل الأخلاق محترمة مقدسة ، لأنها صادرة من مصدر أعلى : من الإله ، وليست من أفراد وجماعات أمثالنا .

٢ ـ تجعل الاحتيال عليها مستحيلاً مادام الخالق العظيم يطلع على خفايا النفوس ، فاذا استطاع الانسان خدعة أخيه الانسان فانه لا يستطيع إخفاء جريمته وذنبه عن ربه .

---

(١) عن كتاب على اطلال المذهب المادي ج ص ٤٠

٣ – تشجع على التمسك بالفضائل مادام لها فوائدها العظيمة على الفرد والمجتمع في الحياة على الغالب ، ولها ثوابها في اليوم الآخر .

٤ – تقرر وجود الحقائق الأخلاقية وتبطل دعاوى جماعة الربيين الأخلاقيين الذين يقولون بتبدل الأخلاق بتبدل الأزمنة والامكنة مما أدى إلى الاستهانة بها واعتبارها أموراً نسبية تطورية ليس لها من التقديس والحرمة مكان . ولا يخفى مافي هذه العقيدة من أثر في انحطاط الافراد والمجتمعات .

إن النظرية الميتافيزيكية تجعل العلوم الاخلاقية علوماً موضوعية عالمية كسائر العلوم الصحيحة . وان تبدل الأخلاق باختلاف البيئات هو نتيجة ضعف العقول واهوائها !

٥ – تجعل في الناس اندفاعاً للقيام بالواجبات الاخلاقية العالية كانكار الذات والغيرية والتضحية بالاموال والارواح مما لا يتصور أن يقدم عليها الانسان إذا لم يكن متمسكاً بدين صحيح يجب اليه تنفيذ هذه التضحيات والبطولات التي تدعوه لنسيان نفسه !

موضوعات العقل العملي

هذا وقد أوضح (كانت[1]) في كتابه نقد العقل النظري أن العقل النظري محدود المعرفة وغير قادر على أن يصل إلى معرفة الشيء بذاته أو إلى أمور مابعد الطبيعة كبحث النفس والإله . ولكنه رأى من جهة ثانية أن العقل العملي أعظم من النظري ويتخطاه ويستطيع الوصول الى أبحاث ما بعد الطبيعة ووضع الاسس الاخلاقية السابقة على التجربة أي غير المعتمدة على التجربة أو المستمدة منها وهي موضوعة استقلال الارادة أي الحرية ، وموضوعة خلود النفس ثم موضوعة وجود الله .

أ – موضوعة الحرية :

لا شك في أن الحرية لا توجد في عالم الحس عالم الحوادث التي تجري في الزمان والمكان لان الحوادث الطبيعية تخضع لقانون النقد ولا حرية في حدوثها وجريانها .

---

(١) الأخلاق للأستاذ عبد السلام العبسي .

فمثلاً لا حرية للحجر الساقط على الارض بل يسير بالضرورة حسب قانون السقوط ، أما الاخلاق فهي لا تدخل في نطاق الضرورة لانها لا تخضع لمبدأ التقيد العلمي بل تتطلب وجود الحرية . والانسان يجد في نفسه القدرة على أن يفرض على نفسه قانوناً يريده لنفسه . كما أنه لا يعقل التكليف في الاخلاق إلا مع الاستطاعة ولكن الاستطاعة تقضي الحرية ويقول (كانت) : « يجب علي فـأنا قادر إذن ، أنا حر ومعنى ذلك واجب علي أن أعمل ولكن لا معنى للواجب إلا إذا كنت قادراً على الفعل ومادمت قادراً فاذن أنا حر بأن أقوم به أو لا أقوم . أما إذا كنت غير قادر وقمت بالعمل بدافع ضغط خارجي قوي فعندئذ أكون حراً بل قمت بعملي بالضرورة وسلوكي هنا غير أخلاقي أي لا يدخل في نطاق الاخلاق وبحثه .

فاذا ساعد الشاب أبويه العجوزين أو عاد صديقه في حال المرض فانه يعمل كل ذلك لشعوره بالواجب وله الحرية بأن يساعد أبويه أو لا يساعدهما أو أن يعود صديقه المريض أو لا يعوده . أما في الاضطرار فلا يبقى هناك اختيار ويكون سلوك هذا الفتى آلياً ، ولذلك قيل : « إذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع » وان التكليف والواجب يكونان على قدر الاستطاعة ومادامت الاستطاعة موجودة فالحرية إذن موجودة أيضاً .

وفي الحقيقة أن الحرية هي الموضوعة التي استند اليها (كانت) في بنائة للواجب الاخلاقي ، ورأى أن الاخلاق غير موجودة إلا بوجودها ، ونحن نشعر بهـا ولكن لا يمكننا أن نقيم الدليل عليها ولهذا سماها بالموضوعة أي المبدأ الذي نقبل به ونشعر بضرورته دون أن نستطيع البرهان[1] عليه .

---

(١) إن البرهان على وجود الله سبحانه واضح وسهل .

ب – موضوعة خلود الروح :

يرى (كانت) أن الانسان يشعر بخلوده داخلياً ولا يستطيع البرهان عليه بعقله النظري ، فطبائعنا العاقلة تتصور نظاماً كاملاً تتحد فيه السعادة بالفضيلة وترى كل فاضل يجب أن يكون سعيداً وكل شرير تعيساً ، أي أن ينال الفاضل جزاء عمله وهو السعادة ، والشرير جزاء عمله وهو الشقاء .

ولكن الحياة ترينا كل يوم أنه لا عقاب للسيء ولا ثواب للمحسن وترينا شريراً ظالماً متمتعاً بالصحة وسعيداً ، كما قد ترينا أن السرقة والخيانة والغدر كثيراً ماتكون أجدى من الفضيلة والأمانة والاحسان، وبكلام أعم ترينا أن الفضيلة غير ملازمة للسعادة .

هنا يصرخ شعورنا صرخة قوية ضد الواقع ولا يريده ، ويتصور أنه لا بد من وجود حياة ثانية بعد الحياة الدنيا تكون فيها السعادة مرافقة للفضيلة ، هناك في تلك الحياة الكاملة تتحقق أحلام العقل وتتحدد السعادة بالفضيلة وتبقى النفس حية لا تموت بموت البدن وتحاسب على أعمالها .

ثم ان (كانت) يقول : لو كان مجرد النفع الدنيوي والوصول إلى الغاية هو كل مايبرر الفضيلة ، لما كان من الحكمة أن نكون فضلاء . بل اننا نشعر بصوت داخلي يقول لنا : إن هذه الحياة ليست إلا جزءاً من الحياة وان الروح خالده وان كل أمريء فيها سيجزى على ما قدمت يداه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ويجعلنا نحد من شهواتنا وأهوائنا لتصل طبائعنا العاقلة إلى تحقيق مثلها الأعلى بعد بطلان الشهوات وموت الجسد .

هـ – موضوعة وجود الله :

يقول (كانت) : ان العقل يقبل كذلك بموضوعة وجود الله كمسلمة من المسلمات الضرورية للأخلاق وخلود الروح . ذلك لأننا إذا سلمنا باتحاد السعادة مع الفضيلة في

الحياة الثانية ، فلا بد من القول بوجود مبدأ يوحد بينهما وهو (الله) . كما لا بد من القول : إن منشىء الخلود هو خالد أيضاً ، وهو فوق كل قدرة وسلطان ، ليجزي كل نفس بما كسبت ، ويحقق العدالة على هذه الأرض .

فاذن لا بد من التسليم بوجود الله ، وليس هذا برهاناً بالعقل ، بل إنه شعورنا الفطري بالواجب الأخلاقي ، ولقد أصاب (روسو) حين قال :

« إن شعور القلب أسمى من منطق العقل » فما أصاب (بأسكال) في قوله : « إن للقلب أسباباً خاصة به لا يمكن أن يفهمها العقل[1] » .

أقول :

ومن المستغرب أن يعتبر بعض الفلاسفة بناء الأخلاق على العقيدة بيوم الآخر أمراً وهمياً مع أنه ثابت عقلاً ونقلاً ، وذلك بالأدلة الآتية التي لاتدع مجالا للشك .

١ ـ ان الخالق العظيم والمسبب الأول ثبت وجوده وتحققت أزليته .

٢ ـ ان المخلوقات كافة حادثة وهي ستفنى .

٣ ـ لا بد من إعادة العالم بعد فنائه لأنه لا يمكن تصور إلـه دون مخلوق ومالك بلا مُلك .

٤ ـ إن خلود الروح يثبت بصورة علمية وتجريبية ، وليس لهذا الخلود معنى دون وجود يوم الآخر .

---

(١) نحن لا نوافق (كانت) وغيره من الفلاسفة على عدم إمكان اثبات وجود الله تعالى بالعقل ، وخاصة إذا تأملنا هذا الكون وما فيه من عجائب وقوانين وقدرات لا يتصور العقل حدوثها من نفسها ، وقد خاطب القرآن الكريم العقل في آيات كثيرة حين الاستدلال على وجود الله سبحانه .

٥ ـ إن تحقيق العدالة وانصاف المظلومين ومعاقبة المجرمين وتقدير العاملين أمر غير محقق في هذا العالم الدنيوي مادام ليس باستطاعة القوانين مهما سمت أن تقوم بمهمتها على الوجه المطلوب ومادامت طاقة الانسان محدودة وليس بقدرته الاطلاع على خفايا النفوس .

لذا كان من المحتم حدوث يوم الآخر لاعادة الحقوق إلى أهلها وتحقيق عدالة الإله وحكمته .

٦ ـ « إن إحساساً واعتقاداً قد أجمع عليه البشر كافة في جميع القرون والبطون بالايمان باليوم الآخر وتأييده عقلا ونقلا لا داعي لرده وانكاره . وان وجد امرؤ لا يشعر بهذا التأثر لضعف في إحساسه ، فقد وصفه القرآن بقوله : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » فلا ينبغي أن نعير لسفسطتهم وتعريضاتهم التفاتاً .

قال العالم الكبير جان فينو الذي كان كثير الشكوك بالتجارب الروحية ثم عاد فآمن بها ايماناً مطلقاً : إن حوادث لا يحصى عددها مستقاة من جميع مجالات العلوم الروحية تميل للبرهنة على صحة البقاء بعد الموت ، .. « وقال البحاثة محمد فريد وجدي رحمه الله في كتابه على أطلال المذهب المادي ص ٣٢ ج ٣ الذي ننقل عن كتابه المذكور القول السابق : « انه لتعوزنا مجلدات عديدة لأجل تدوين أدلة البقاء بعد الموت المسجلة في المجاميع الصحيحة لجمعيات المباحث النفسية التي تألفت في كل مكان ، وفي المؤلفات الصادرة عن علماء مشهورين شهرة عامة . » وانه لمن المؤسف ألا تلقن وزارة التربية والتعليم هذه العلوم الروحية لطلابنا في مناهج مركزة ، وتكتفي بتعليمهم العلوم المادية ونظرياتها التي أصبح كثير منها باطلا كما رأينا من شهادات واعتراضات العلماء التجريبيين أنفسهم ، مما سبب هذه الفوضى الخلقية التي تهدد حصوننا من الداخل والتي تنذر بأعظم كارثة وطنية !!

وختاماً لهذا البحث أنقل الكلمة الآتية من كتاب علم الأخلاق للدكتور كامل عياد تعليقاً على النظرية الميتافيزيكية (ص ٦٢) .

«إن هذه النظريات التي تقوم على فكرة الخير المطلق ، لها الفضل في توسيع الأفق الأخلاقي للبشرية فإنها من جهة تجعل للعقل المفكر ، وهو خاص بالانسان ومشترك بين جميع البشر ، المقام الأول في الحياة الانسانية .

ثم انها من جهة ثانية ، لا تعتبر الحياة الأخلاقية كمملكة ضمن مملكة ، بل تربطها بالنظام العالمي ، ذلك لأنها تعتبر الخير مبدءاً لكل حياة ، بل أساساً لكل وجود .

وهذه النظريات تطالب الإنسان بجهد عظيم حتى يسمو إلى هذا المبدأ ويحققه في نفسه على قدر الإمكان :

وربما كان لا يخلو من فائدة ان نزرع فكرة الخلود في هذا الكائن الفاني[1] الذي هو الإنسان . ولذلك فان المحاولات لفصل علم الأخلاق عن فلسفة ما بعد الطبيعة بحجة تأسيسه على دعائم متينة تنطوي على خطر كبير . ونقصد بذلك تجريد الأخلاق من المبادىء السامية والحط من قيمتها . وفي الحقيقة فإن الحياة الأخلاقية لا يمكن أن تبلغ الكمال إلا إذا استندت إلى التأمل الفلسفي . »

أنصار النظريات السابقة : إن الأخلاق الدينية – غير الإسلامية – كانت عرضة في أوربا – للشائعات في أغلب الأحيان خلال القرن السابع عشر الميلادي ، انها أضرت بها بأكثر مما نالها من جميع أفكار الفلاسفة . إنها أخلاق متضاربة ومتناقضة .

فالإنجيل بيننا يعلن بلسان المسيح عليه السلام أنه ما جاء لينقض الناموس وليمحو الشريعة

---

(١) ان غرس فكرة الخلود فيه كل الفائدة للانسان الذي سيفنى ثم يبعث ليخلد مما يدفعه إلى مضاعفة جهوده الصالحة وأعماله الفاضلة ليكون من السعداء يوم القيامة .

بل ليكمل ، فيؤيد بذلك العقوبة في التوراة ، إذا به يقول في موطن آخر : « سمعتم انه قيل : العين بالعين ، والسن بالسن ، ولكني أقول : لا تقابلوا من يسيئكم بالمثل ، بل إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ... »

وإذا كانت الموسوية تحث على حب الأصدقاء وبغض الأعداء ، فإن الإنجيل يقول : « ولكني أقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا من يلعنكم !! » وبينما يعتقد النصارى بالتثليث وبنوة المسيح بنوة حقيقية وبإباحة التماثيل ! — إلا بعض مذاهبهم — إذ بالانجيل ينادي بوحدانية الله : (هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

ويقول في موطن آخر لا تصنعوا تمثالاً ...

الناقد : إننا إذا كنا ندعو إلى الأخلاق الدينية ، فانما نقصد بذلك الأخلاق في التشريع الإسلامي الثابت الأركان الذي لا يتسرب اليه الاختلاف والتناقض بعكس كثير من الأديان الأخرى المحرفة والمنسوخة التي لم تنتقل الينا بأمانة وصدق وتواتر كما نقل التشريع الإسلامي باعتراف العلماء المنصفين .

أنصار النظريات السابقة : إن الأخلاق الدينية تزهد الناس في الحياة الدنيا وتحثهم على إهمالها والاهتمام — فقط — بالآخرة ، مما يتنافى مع أبسط مبادىء الحقيقة ويدعو إلى التصوف والتماوت (السعادة ليست في هذا العالم ، ليست الأرض إلا منفى . أما مملكة الله فليست في عالمنا الأرضي بل هي في عالم آخر ...)

الناقد : إن الإسلام يدعو إلى طلب الدنيا كطلب الآخرة . ويجعل الأولى مزرعة للثانية لا يمكن أن تنال إلا عن طريقها ويعلن بحماسة ما يلي : : (...ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .)

أنصار النظريات السابقة : ماذا تقول بالكلمة الآتية (لمدام جيّوان) النصرانية التي كان لها مريدون وكنيسة :

« إن الاخلاق النصرانية تدعو المؤمن إلى محبة الله ، كيف يجب إذن أن نحب الله ؟ إن هذا يستدعي تأملات وتأويلات ، وأيضاً ماذا ترى بعد ذلك ؟

إن حب الله الذي تطربه وتمجده هذه المرأة انما هو اتحاد الروح بالله ، ليس فقط بتجرد عن الغايات ، ولكنه فوق ذلك إلى حد الوله ، والمسيحي لا يكون مسيحياً حقاً إلا بأن يفنى في الله ، ويدعو الله يتحرك فيه ، وان الطريقة الحقة لمناجاة الله ، تتلخص في أن يغرق المؤمن في تأملاته في الله ، دون قول أو عمل أو طلب يرجى منه ، منتظراً تجلياته ، وهذه الحال إذا تحققت تماماً تملأ الروح من الله ، أما الأعمال حينئذ فلا قيمة لها ! إن نقاء الحب يجعل كل شيء نقيا ، وعلى هذا عندما تصل الروح إلى ذلك المقصد تصبح خاصة لجميع مظاهر العناية الربانية انها لن تحب سوى المحن ، والتهم والرضا بالمخازي !! بل انها لتقبل فوق ذلك ، من أجل حب الله ، أن تحكم عليها بالهلاك الأبدي من الله ، وبإقصائها عن حضرته أبد الدهر .

الناقد : إن هذه المبادىء الحلولية بعيدة عن الدين المسيحي كما هي بعيدة عن الإسلام ، إنما افتراها الدجاجلة من رجال الدين مقتبسين مبادىء وحدة الوجود الشركية من المذاهب الوثنية الهندية والفارسية واليونانية عن طريق التقليد الأعمى .

وهذه المباديء الكافرة لم تتسرب إلى النصارى فقط ، بل فشت في كثير من المسلمين عن طريق الصوفية الهدامة !

أصحاب النظريات السابقة : وها هي ذي الشناعة الأخيرة التي ، حولها ، لم يكف (فولتر) ومعاصروه عن حملاتهم عليها ، تلك هي التناقض بين السيرة التي كان عليها كبار رجال الكنيسة وبين الأخلاق التي كانوا يعلمونها ويوصون بتعليمها في الكنائس . إن التناقض بين تلك القواعد التي تعقد بالشفاء وبين تطبيقاتها العملية لم تغب عن تلك

العقلية الشيطانية للشعب الفرنسي منذ زمن بعيد ، وان المؤلفات الهزلية (الكوميدية) للقرون الوسطى وللقرن السادس عشر الميلادي لمليئة بذلك التناقض ، ولكن الأمور لم تكن قد بلغت من التناقض ما بلغته في القرن الثامن عشر . كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع ، والقناعة ، والصوم والورع والسذاجة والرحمة ، وارادة السلام والعدل ومحبة الله الخالصة ، كل ذلك كان خيراً للمؤمنين ، وللقسيسين المتصوفين وللقديسين ، وللخطب والمواعظ . أما أساقفة البلاط وأما الشخصيات الكهنوتية الكبيرة ، فقد كان لهم شيء آخر : البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء ، والشهرة في مجالس الخاصة والعربات والخدم والأرباح الجسيمة ، والموارد والمناصب ؛ كل ذلك كان يحظون به مقابل تخدير الشعب لابقائه في خضوعه وسكونه وجره إلى أقدام السلطة في طاعة واحترام[1] .

الناقد : كل ما ذكرتموه عن سلوك بعض رجال الدين الشاذ ، فإن الدين غير مسؤول عنه ، ووزره على الذين يفعلونه .

أنصار النظريات السابقة : حدثنا عن نظرية الاسلام الخلقية بعد أن اقتنعنا بصحة إمكان تأسيس الأخلاق على ما وراء الطبيعة .

نظرية الاسلام الخلقية

الناقد : — تمهيد :

إن المقام الذي تبتدىء به الفلسفة بحثها في الأخلاق ليس في الواقع الأمر بأصل المسألة الخلقية ومبدأها ، وإنما هي مباحث فرعية ومسائل ثانوية قد تناولتها الفلسفة فجعلتها فاتحة بحثها وعنوان مقالها . وهذا خطأ قد وقعت الفلسفة فيه . فان السؤال عن المقياس الذي عسى أن يُعرف به الحق والباطل من أعمال الانسان

---

(١) إن كلمة السيدة جيّوان منقولة باختصار عن كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة تأليف أندره كرسون .

وأفعاله وعن الخير الحقيقي الذي ينبغي أن يكون السعي وراء الوصول اليه هو الغاية المنشودة للمرء ، ليس بالسؤال الأول الأساسي وليس موضعها مفتتح البحث في الأخلاق . وانما المسألة التي لا بد أن يحلها الانسان أولاً ويفك معضلتها قبل كل شيء ، هي : ما هي مكانة الانسان ومنزلته في هذا العالم ؟ هذا السؤال يتقدم جميع الأسئلة الأخرى بحجة أنه مادام الانسان لم يقطع بشيء في باب منزلته في هذا الكون ، فان بحثه عن المسألة الخلقية من العبث ومما لا يعود عليه بجدوى . بل الراجح في الظن أنه مادام الانسان لم يتبين منزلته في هذه الدنيا ، يلتوي عليه سبيل البحث والتنقيب ، وكل ما يقرره من القواعد والمبادىء الخلقية نتيجة لبحثه لا يخلو من أن يأتي معوجاً من أساسه . وخذ لذلك مثلاً أنك إذا شئت أن ترسم لك خطة العمل في ضيعة بعينها وان تحدد لنفسك ما يجوز من وجوه تصرفك فيها وما لا يجوز ، فهل يمكنك أن تحلّ هذه المسألة قبل أن تكون على بيّنة من منزلتك في هذه الضيعة ، وقبل أن تجزم بنوع علاقتك بها . فانه إذا كانت تلك الضيعة ملكاً لغيرك ولم تكن أنت فيها إلا كالنائب والأمين ، كان عملك في الضيعة وتصرفك فيها على طريقة وعلى وجه مخصوص ، وأما إذا كنت بنفسك صاحبها ومالكها وكانت حقوقك تملّكك لها واسعة غير محدودة ، كان عملك وتصرفك فيها على طريقة أخرى وعلى وجه مغاير للوجه الأول كل المغايرة ، ولا يقف الأمر على أن منزلتك في تلك الضيعة وعلاقتك بها هي التي تحدد لك طريق العمل الصحيح فيها ، بل الأمر أنه عليها يتوقف كذلك جواب هذا السؤال وهو : من ذا الذي يستحق أن يحدد لك خطة العمل الصحيحة في الضيعة ؟ ـ أأنت بنفسك أم من أنت نائبه في الضيعة ؟

والإسلام يُعنى بهذا السؤال ويعالجه قبل كل شيء ويبين لنا بدون أدنى شائبة للشك والالتباس أن الانسان في هذه الدنيا عبدٌ لله عز وجل ونائب[1] عنه فيها ، وكل ما يراه المرء ويواجهه فيما بين السموات والأرض ملك لله تعالى وجزء من

---

(١) سنناقش رأي الأستاذ ابي الأعلى المودودي الذي ننقل عنه هذا البحث ، بعد النهاية منه .

خَلقه ، حتى جسد الانسان وجميع قواه ومواهبه التي أودعها ليست بملكه هو ، وإنما هي كلها لله تعالى وحده . وقد بعث الله الانسان في هذه الدنيا نائباً عنه وجعله في الأرض خليفة ، ووهب له حقوق التصرف في جميع تلك الأشياء التي يواجهها يتصل بها فيما بين السموات والأرض وفي كل ما أوتي في نفسه من القوى والمواهب . وفي تولي الانسان هذه المنزلة ـ منزلة الخلافة في الأرض ـ بلاء واختبار من ربه عظيم .

متى يكون الجزاء :

أما نتائج هذا البلاء والاختبار فلا تظهر في هذه الدنيا ، بل حينما تنتهي أعمال الأفراد والأمم وكل النوع البشري إلى غايتها وتبلغ نتائج ما اكتسب الانسان وعواقب ما اقترف في هذه الدنيا آخرها ومنتهاها ، إذن سيحشر الله جميع الخليقة من لدن آدم إلى آخر بني الانسان ، ويحاسبهم أفراداً وجماعات في آن واحد ، ثم يحكم بينهم : من قام بحق عبادته وخلافته أحسن قيام ومن قصر فيه وتقاعد عنه ! وهذا البلاء والاختبار ليس بمقصور على أمر واحد من الأمور التي يزاولها الانسان بل هو شامل لجميع أمور حياته ولا هو بمنحصر في ناحية من نواحي حياته ، بل هو محيط بكل حياته بجميع فروعها وشُعَبها . ثم الانسان مبتلى في جميع ما أوتي في جسده وروحه من القوى والمواهب والملكات ومختبر في كل ما أعطي من حقوق التصرف فيه من الأشياء والمرافق الخارجية ـ مختبر في كل هذا وذاك : كيف استخدمها وتمتع بها وكيف استعمل حق تصرفه فيها ؟

الله تعالى يحدد خطة العمل للانسان :

وإذا تعينت بذلك منزلة العمل للانسان ومكانته في هذا الكون ، فمن نتائجه العقلية أنه لا يبقى للانسان من حق في أن يرسم لنفسه خطة العمل الصحيحة المقتصدة في حياته الدنيا . بل يرجع كل ذلك الحق إلى الله تعالى وهو الذي يحدد للانسان خطة العمل والسعي وينير له معالم الجادة السوية في حياته . فترى بعد ذلك أن جميع الأسئلة التي قد أثارها الفلاسفة في باب الأخلاق تنحل عقدها وتنفك ألغازها ؛

وفوق كل ذلك لا يبقى هناك أي مساغ لأن يكون لكل واحد من تلك الأسئلة عشرات من الأجوبة مختلف بعضها عن بعض ، ولا لأن يستأثر كل فريق من البشر بجواب من تلك الأجوبة المتعددة فيتخذه نبراساً يسير على نوره في سبيل منحرفة من سبل الأخلاق ، ثم تأتي هذه الفرق المتسكعة في مختلف السبل السائرة إلى شتى الغايات فتفسد في الأرض بغوايتها واعتسافها وركوبها أهواءها وتجر على الدنيا أنواعاً من الفوضى والاختلال ، مع أنها أعضاء في مدنية واحدة ونظام اجتماعي واحد . وأما إذا اعترف الانسان بمنزلته هذه ، وأذعن لما قرره له الاسلام في هذا العالم ، فانه يتحقق بذلك أنه ليس الخير الحقيقي الأعلى الذي ينبغي أن ينشده الانسان في حياته ويجعل الوصول اليه نصب عينه إلا أن ينجح في امتحان الله واختباره وينال مرضاة ربه . وكل طريق لعمل المرء وكل خطة لسعيه وكفاحه في هذه الدنيا إنما يتوقف صحتها وخطأها على قدر مساعدتها للانسان على نيل ذلك الخير الأعلى والوصول اليه وعلى كونها حائلة دونه وعائقة عنه .

مقياس الخير والشر :

وكذلك يثبت من هنا أن المرجع الأصلي الصحيح لمعرفة الخير والشر والصحيح والخطأ في فيما يأتي الانسان من الأعمال والأفعال هو هدى الله تعالى وارشاده ليس غير ، وأما الوسائل والمآخذ الأخرى التي يتخذها الانسان دون ذلك لتحصيل تلك المعرفة ، فإنها وان صلحت لأن تكون مساعدة ومؤازرة لذلك المرجع الأصلي ، إلا أنها ما كانت لتكون بنفسها المرجع الأصلي والمأخذ الحقيقي الصحيح . ثم يتبين من ذلك أن مرجع السلطة من وراء القانون الخلقي هو الله تعالى وحده ؛ وأنه ينبغي أن يكون الحافز الحقيقي للانسان على التخلق بالاخلاق العالية والخصال الشريفة والتنكب على الأخلاق الدنيئة والعوائد السيئة هو محبة الله تعالى والحرص على نيل رضاه والخوف من سخطه وغضبه .

اشتمال الاسلام على جميع مزايا النظريات الأخلاقية :

ومن ذلك كله ، لا تنحل جميع المسائل الأساسية في فلسفة الأخلاق فحسب ، بل يكون النظام الخلقي المخصوص الذي يتكون على أساس هذه النظريات التي جاء بها الاسلام واسعاً شاملاً ينخرط في سلكه جميع ما وضعه علماء فلسفة الأخلاق وأقطابها من النظم الخلقية المختلفة وتنسجم فيه انسجاماً مطَّرداً ، ويجد فيه كل واحد منها مكانه اللائق وموضعه المناسب . وليس من العدل أن يقال إن النظم الخلقية التي جاءت بها الفلسفة لا يوجد فيها شيء من الحق والصدق ، بل كل ما يعاب وينكر عليها أنها اتخذت جزءاً واحداً من أجزاء مختلفة من الحق فحاولت أن تقصر الحق على ذلك الجزء الواحد فحسب ، إو بعبارة أخرى أرادت أن تحول الجزء الواحد كُلّاً : واما ما فاتها من القدر الزائد لتحويل ذلك الجزء إلى الكل ، فاضطرت لتلافيه إلى أن تتخذ أجزاء من الباطل وتستمد منها ، لتخلطها . أما الاسلام فقد أتى - خلافاً لذلك - بالحق كله والصدق بأكمله . ويوجد فيما بيده من الحق الكامل الشامل جميع ما عند الناس من أجزاء ناقصة متفرقة من الحق .

السعادة في النظرية الاسلامية :

ففي الاسلام - مثلاً - للمسرة مكانة ملحوظة . غير أن المراد بالمسرة هنا البهجة والرفاهية التي ينعم بها الانسان باتباعه لأوامر الله تعالى وباهتدائه بهديه وقانونه . ثم هذه المسرة والرفاهية قد تكون مادية يتمتع بها جسد الانسان وقد تكون نفسية عقلية تستشعرها نفس الانسان وضميره ، وكذلك قد تكون فنية روحية يدركها الذوق ويحس بها الطبع في الانسان . زد على ذلك أن هذه المسرة والرفاهية شاملة لمسرة الفرد الانساني ورفاهيته ، ومسرة الجماعة الانسانية ومسرة كل النوع البشري ورفاهيته . كل هذه الأنواع المختلفة للمسرة لا تجد فيها شيئاً من التخالف والتناقض ، بل يوجد فيما بينها كل التلاؤم والتوافق .

الكمال في النظرية الاسلامية :

وكذلك للكمال في الإسلام مقام مرموق ، إلا أن الكمال المقصود هنا ما يستحق به المرء نجاحاً مبيناً في البلاء والاختبار الذي يبتليه به ربُّه في هذه الدنيا . وهذا الكمال يشترك فيه الفرد والجماعة والأمة والنوع البشري بأجمعه . فالسلوك الخلقي الصحيح المرضي في الإسلام هو ألا يجتزىء المرء بأن يرقى به في درجات الكمال وحدَه ، بل يكون فوق ذلك عوناً لغيره ممَّن يسايرونه في طريق الحياة في سعيهم وراء نيل الكمال ، ولا يكون أحد عائقاً لأخيه عن تقدمه ورقيه .

ومن هنا تجد نظرية كانت (Knt Immanual) القائلة بالخضوع التام لأمر الضمير النهائي (Categarical Imperative) أيضاً مكاناً سامياً . وتتهيأ لهذه السفينة التي كانت تتمايل ذات اليمين وذات الشمال من قبلُ في خضمّ الفلسفة ، مرساةٌ محكمة تنجو بها من الاضطراب فان قانون (Categorical Imperative) القائل بالاطاعة المطلقة لأمر الضمير النهائي ، والذي ذكره (كانت) ولم يتمكن من أن يوضحه حق الايضاح ، هو في نفس الأمر القانون المنزل من الله تعالى والشريعة التي قد سنها الله – جلت قدرته – وشرعها للخلق ، والله تعالى هو الذي قد بين حقيقتها وأوضح معالمها ، ومن أجل ذلك أصبحت واجبة الاطاعة المطلقة وليس البرّ إلاّ ان يطيعها الانسان إطاعة كاملة ويتبعها اتباعاً صادقاً .

النظرية الحيوية والاجتماعية في الاسلام :

ثم إن المرجع والمأخذ الذي قد أسعفنا به الإسلام لمعرفة الخير والشر في الأخلاق الانسانية لا ينفي ولا يبطل جميع ما سواه من المآخذ والمراجع التي يرجع اليها الفلاسفة ويستندون اليها ، وانما يسلكها جميعاً في نظام واحد ويجعلها أجزاء متناسقة لأصل منفرد . وأما ماينفيه ذلك المأخذ ويرفضه فهو أن يتخذ الانسان جميع تلك المآخذ أو بعضها مأخذاً أصلياً حقيقياً ووسيلة نهائية وحيدة إلى العلم والمعرفة .

والإسلام يُقرّ أن ما اوتي الانسان من معرفة الخير والشر بواسطة الهداية والإرشاد الالهي فإنه أصل العلم ومرجعه . وأما العلم الذي يحرزه الانسان من التجربة أو يستخرجه من نواميس الحياة وأحوال الوجود وكذلك مايهدي إليه عقله ووجدانه من العلم والمعرفة ، فليس له إلا كالشواهد . ألم تر أن الأعمال التي قد عدّتها الهداية المنزلة من عند الله خيراً وصلاحاً ، قد شهدت ولا تزال تشهد تجارب النوع البشري بكونها خيراً، وكذلك لا تزال تصدق حكمها في ذلك نواميس الحياة ، ويؤيده عقل الانسان ووجدانه .

الاسلام حكم عند الخلاف

ولكن مما لاشك فيه مع ذلك أن مقياس الحق وميزان الصدق هو الهداية الإلهية لاهذه الوسائل الإنسانية المختلفة للعلم . فإن استنبط شيء من تجارب الإنسانية التاريخية أو من نواميس الحياة ، أو ارتئي رأيٌ مستند إلى العقل أو الوجدان يخالف حكماً من أحكام الهداية السماوية ، فإنما تكون العبرة كلها لهدى الله تعالى وإرشاده ، لا لهذا الرأي أو ذلك الاستنباط . وإن الفائدة الكبيرة من أن يكون عند الانسان بفضل الهداية الالهية مقياس للعلم الصحيح مستند إليه ، هي أن تنسجم جميع العلوم والمعارف الانسانية في نظام وتنتظم في نسقٍ ، وينجو الانسان من الفوضى والاضطراب الذي ينشأ إذا لم يكن عنده أي مقياس مستند إليه ، ويكون كل ذي رأي من الناس معجباً برأيه عاضّاً عليه بنواجذه .

القوة المنفذة للأوامر الأخلاقية

وكذلك يحلّ الإسلام مسألة القوة المنفذة التي تتطلبها القوانين الخلقية لتنفاذها بين الناس، ومسألة الحوافز التي تدفع الانسان إلى محاسن الأعمال وتجنبه مساوئها ، بحيث لا يضرب عرض الحائط بالآراء والمقترحات الأخرى التي قد قدّمها الفلاسفة لحل تلك المسائل ، وأنما يعالجها مصححاً لها ومهذباً بعضها ويصرف عنها الأخطاء والأغاليط التي التصقت بها أو أضيفت

إليها ، فينظمها ويسلكها في نظام شامل كما تُسلك اللآلىء في عقد منظوم . إن الشريعة الإلهية ، لكونها شريعة منزلة من عند الله تعالى ، فيها من الحصانة ماتقوى به وتستطيع أن تقوم بنفسها وينفذ أمرها بين الناس . وهذه القوة — التي تُساعد على تنفيذ الشريعة الإلهية — كامنة أيضاً في نفس المؤمن الذي يروح وينشط لابتغاء مرضاة ربه ، وليسعى وراء الكمال الذي يناله الانسان بتقدمه في سبيل التقرُّب إلى الله والتزلُّف إليه . ثم هذه القوة المنفذة للقوانين الخلقية توجد كذلك في مجتمع المؤمنين بالله ، في الدولة الصالحة الراشدة التي قد أُسس بنيانها على قواعد الشريعة الإلهية . هذا ومما يحفز المؤمن بالله ويستحثه على التقيُّد بالقوانين الخلقية والاعتصام بحبلها ، عنايته البالغة بأداء واجبه واهتمامه الجدي للقيام بتبعاته وفرائضه ، وإيثارُه للحق والصدق على بصيرة به ، ومقتُه وازدراؤه للباطل عن علم بحقيقته ، و إلى ذلك كله مايرجو المؤمن من ربّه من حسن الجزاء ونعم الثواب ، وما يخافه منه ويتقيه من عسير الحساب وسوء العذاب .

أرأيت كيف يقضي الإسلامُ على الفوضى والاختلال الذي ينشأ في ناحية الفكر والعمل الانساني حينما يحاول المحاولون أن يضعوا نظاماً خلقياً يتبعه ويسير عليه ، زاعمين أن الانسان ليس له رب ولا إله يهديه إلى طريق الخير والرشاد .

الناس سواسية ومسؤولون

وإذا عرفتَ ذلك فهيا بنا نتقدم في البحث إلى الأمام : إن تصور الإله الذي قد جاء به الإسلام هو أنه لاخالق ولا مالك للنوع البشري وسائر العالم إلا الله الواحد الأحد . لا إله إلا هو ولا حكم إلا له ، ولا شريك له في الوهيته . فلا مجال عنده لشفاعة لا تُرَدُّ ولا ترفض إلا أن تكون تضرعاً وابتهالاً ليستمطر به أكف بره وإحسانه .

وأن فوز الانسان وخسرانه ، مما يتوقف عند الله تعالى على ماقدمت يداه في حياته

الدنيا . وليس لأحد أن يكفّر عن سيئات الآخر ولا يجوز أن تزِرَ وازرةٌ وِزْرَ أخرى، ولن يُثاب أحدٌ بما كسب غيرُه من الأعمال . ثم إن الله تعالى يتنزه عن التعصب لفريق من البشر دون آخر ، وهو أعلى وأرفع عن أن يجنح إلى فرد دون فرد ، أو أن يحيف على أسرة دون أسرة ، أو يخصّ بعنايته أمةً دون أخرى أو نسلاً دون نسل . بل جميع الأناسي عنده سواسية ، وهو قد وضع لجميع البشر قانوناً خُلقياً واحداً سواء ؛ والمزية كل المزية عنده ، هي المزية الخلقية . وإن الله رؤوف رحيم ، فيجب في عباده الرحمة والرأفة . وهو السخي الجواد ، فيجب في عباده خصائل الجود والسخاء . وهو العفو الغفور ، فيجب من عباده من يعفو ويصفح ، وهو العادل المقسط ، فيجب المقسطين العدُول ، وتترفّع ذاته عن صفات الظلم والضيم وضيق النظر وحرج الصدر ، ويتنزه عن القساوة والفظاظة والتعصب والميل إلى جانب دون آخر ، ومن ثمَ لا يُحب إلا من كان بريئا من تلك المفاسد ، نزيهاً من تلك المساوىء والرذائل .

الله هو الإله الوحيد والآمر المطلق

هذا وإن العظمة والكبرياء كلها لله تعالى من غير منازع ، فالله لا يحب للانسان أبداً أن يتكبر في أرضه بغير حق . وهو الإله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو ، وجميع من في هذا العالم عباد له على السواء ، ولأجل ذلك لا يرضى لأحد منهم أن يتبوأ من عباده الآخرين منزلة الإله المُطاع والآمر المُطلق . وهو وحده مالك كل شيء في السموات والأرض ، وأما ما عند الانسان في هذه الدنيا ، فليس إلا أمانة من عند الله قد ائتمنه عليها ؛ فلا يجوز لأحد من عباده أن يستبد إزاء الله تعالى بالحكم والأمر ، أو يتصدّر فيسن لخلقه قانوناً ويضع لعباده شرعاً ودستوراً أو يقوم فيهم مقام المتّبع المُطاع في ذاته ، فإن الله تعالى وحده هو المتّبع المُطاع للخلق أجمعين ، وكل الخير لجميع البشر في أن يطيعوه إطاعة كاملة

ويذعنوا ، لأمره إذعاناً تاماً . والله تعالى بعد ذلك ممتن على عباده ومحسن اليهم ، فيجدر بالانسان أن يقوم بحمده وشكره وأن يحبه ويتقرب إليه . وهو المنعم الحقيقي ، فيستحق ألاّ يتصرف الانسان في نعمه وآلائه إلا وفقاً لمشيئته . وهو العادل المنصف ، فحتم على الانسان أن يتّقي من عَدلِه العقوبة وشر الجزاء كما يلزمه أن يرجو من نصفته خير الثواب وحسن الجزاء. ثم هو العليم الخبير الذي لايعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ويعلم مافي الصدور ، فهيهات أن يخدعه الانسانُ بما يتظاهر به من دماثة الخلق وما يتكلفه من سماحة الطبع . وهو المحيط بعباده ، فلا يحسبن أنه يمكنه أن ينجو من بطشه إذا اقترف إثماً .

مزايا النظرية الإسلامية على غيرها من النظريات الأخلاقية

هذا ، وتأمل في تصور الإله هذا ، تجد أنه تتكوّن منه – كنتيجة طبيعية – صورة واضحة للحياة الخلقية الكاملة . ومن مزايا هذه الصورة أنّك لاتجد فيهـا من المعايب والنقائص ماُيوجد في المبادىء الخلقية التي تستمسك بها ديانات الشرك ومذاهب الإلحاد المختلفة . ولا توجد فيها مخارج لفرار الانسان وتملّصه من واجباته وتبعاته الخلقية . وكذلك لايوجد فيها مساغ لتلك الفلسفات المتعسفة الجائرة التي تدفع الانسان إلى أن يقسم معمورة النوع الانساني شطرين باعتبار ميوله ورغباته ، فيصبح لشطر واحد من البشرية إنساناً شريفاً عالي الخُلق ملكي النفس ، وينقلب للشطر الآخر منها عذاباً أليماً وشيطاناً رجيماً . وكذلك هذه الصورة بريئة من النقائص الجوهرية التي هي آخذة برقاب المبادىء الخلقية الالحادية والتي لاتستطيع معها الأخلاق الانسانية أن تتأصل وتقوى وتستوي على قاعدة متينة . ثم في هذه الصورة – فوق كل ماتقدم ذكره من المزايا السلبية – مزية ايجابية : هي أن هـذه الصورة تنصب بين يدي الانسان غاية سامية وسيعة

للفضيلة لاحد" لسموها وسعتها ، وتسعفه للبلوغ إلى منتهى تلك الغاية بحوافز مستولية على الأمد في الزكاء ونبل القصد .

ثم أن هذا التصور الذي يلقيه الإسلام في روع الانسان ، أنه لايقصر بلاء ربه له على شيء واحد بل هو يشمل جميع الأشياء التي وهبها الله تعالى للانسان . وكذلك لاينحصر امتحانه في حالة من حالاته المتعددة وفي منزلة من منازله المختلفة في حياته ، بل هو شامل لجميع حالاته التي يعيش فيها ومحيط بجميع منازله التي يعمل عليها في هذه الدنيا . ثم هو ليس بمقصور على فرع من فروع حياته ،بل هو متضمن لكل حياته بجميع فروعها وشعبها - هذا التصور يوسع نطاق الاخلاق الانسانية بقدر مايتسع نطاق الامتحان الالهي ودائرته . إن جميع مايملك الانسان من العقل ووسائل العلم ومآخذه وجميع مايتصل بذاته من القوى الفكرية والعقلية والحواس والمشاعر والعواطف والأهواء والقوى الجسدية - إن جميع ذلك عرضة للامتحان ، داخل في محيطه . وبعبارة أخرى أن الامتحان الالهي شامل لذات الانسان بأ كمله ومحيط بشخصيته من جميع الاطراف . وأن الانسان بعد ذلك متعرض لامتحان ربه فى معاملته لجميع الاشياء التي يواجهها فيما حوله في هذه المعمورة ، ولجميع الأشياء التي يتصرف فيها ولجميع الخلق الذين يصل بينه وبينهم أمر من أمور الدنيا والذي يبلو الله تعالى به الانسان ويمتحنه فيه فوق كل ذلك هو أنه هل يعمل الإنسان ويتصرف ويعامل في كل تلك الأمور مؤمناً بألوهية الرّب تعالى ومستحضراً في نفسه أنه عبد له ونائب عنه في هذه الدنيا ، أو يعمل كل ذلك حراً طليقاً نزاعاً إلى الاستقلال والاستبداد وجاعلاً نفسه عبداً لغير الله خاضعاً لغيره من الطواغيت . إنك في هذا التصور للأخلاق لاترى شيئاً من الحرج والضيق الذي ينشأ عن تصور الدين المحدود الضيق بل يدفع هذا التصور بالانسان إلى التقدم والرقي في كل ميدان من ميادين الحياة ويخبره بالتبعات والمسؤوليات التي تلقى على عاتقه في كل ميدان من تلك الميادين ويزوده بالمبادىء الخلقية التي إذا اتبعها وعمل بمقتضاها تضمن له الفوز والنجاح في امتحان ربه في كل ميدان من ميادين الحياة المختلفة .

أضف إلى ذلك أن هذا التصور وهو أن الامتحان الالهي لاتظهر نتيجته في هذه الدنيا بل يقضى أمره ويفصل في الدار الآخرة ، وأن الفوز المبين والخيبة الحقيقية ماعسى أن يثاب به الانسان في اليوم الآخر لامايكسبه في هذه الدنيا، وكذلك يقلب هذا التصور وجهة نظر الانسان ويحوّله تحويلاً بصدد الحياة الدنيا وشؤونهـا ومعاملتها . ويجعله لايحسب كل مايظهر من نتائج أعماله وثمرات أفعاله في هذه الدنيا مقياساً حقيقياً للحسن والقبح والصحة والخطأ ، وميزاناً ثابتاً محققاً للحق والباطل والفوز والخسران . ومن ذلك لايتوقف اتباع المرء للقوانين الخلقية أو إعراضه عنها على تلك النتائج . وذلك ان من يتقبل هذا التصور للحياة الآخرة وتستيقن به نفسه فإنه لامحالة يصبر على اتباع القوانين الخلقية ويعنى بالتقيد بها في جميع الاحوال سواء أكانت نتيجته الظاهرة في هذه الدنيا حسنة أو سيئة ، وسواء أكان نصيبه من ذلك فوزاً أو خسراناً .

وليس المراد أنه لايأبه البتة لما يظهر في هذه الدنيا من نتائج الأعمال وثمراتها ولا يهتم بها ، بل الامر أنه لايهتم لهذه النتائج العارضة والثمرات الزائلة التي تحصل في هذه الدنيا إلا بقدر معلوم ، وأما مايستوفي عنايته به ويبالغ في اهتمامه له، فهو النتائج الأخروية والعواقب الأبدية الباقية ، ثم انه لن يستسيغ لنفسه خطة من خطط العمل إلا ماراعى فيه تلك النتائج الأخروية والثمرات الأبدية الباقية ، ولا يكون حكمه في أخذ بعض الامور ورفض بعضها مبنياً على أنه هل تجلب تلك الأمور إليه اللذة والمتعة والمسرة في هذه المرحلة الأولى من مراحل حياته أم لا ؟ بل يكون مدار حكمه في ذلك على مايظهر من نتائج تلك الامور الباقية المحتومة في المرحلة الأخيرة من حياته . ومن ذلك سيكون نظام أخلاقه ولا ريب سائراً إلى الأمام ماضياً في سبيل الرقي ، ولكن لاتكون مبادئه الخلقية عُرضة للتبدل والتغير، ولا تكون طباعه وسجاياه هدفاً للتحول والتقلب . وبعبارة أخرى ان الانسان وإن بقيت تصوراته في الخُلق ترتقي وتتسع بارتقاء الثقافة وتقدم المدنية والعمران، فإنه لن تتغير مبادئه الخلقية بكل منقلب للحوادث ، ولن تتحول قواعده في الأخلاق مع

كل دورة للأحوال والظروف . ولا يستحيل الانسان كالحرباء في الاخلاق لايثبت له خلق ولا يبقى له عمل دائم ويكون :

كريشة في مهب الرياح طائرة   لاتستقر على حال من القلق

فائدة هذا الجزاء الأخروي

فمن ناحية الأخلاق يستفيد الانسان من هذا التصور الإسلامي للحياة الآخرة فائدتين خطيرتين ، ما كان الانسان ليستمدهما من أية وسيلة أخرى غيره . إحداهما أنه بهذا التصور تثبت المبادى الخلقية غاية الثبات وتستحكم استحكاماً لاتزلزل فيه ولا اضطراب . والأخرى أنه يتأتى بذلك لسيرة الانسان وسلوكه الخلقي قرار وتمكن لايخشى عليه من الميل والعدول مادام الانسان ثابتاً في الدين وقلبه مطمئناً بالايمان . إن الصدق قد يأتي في هذه الدنيا بعشرات من النتائج المختلفة ، وقد يسلك بعض منتهزي الفرص وأصحاب الاغراض ممن يراعون تلك النتائج ويطمحون إليها بابصارهم عشرات من مناهج عملية مختلفة حسبما تقتضيه الفرص وتسمح به الاحوال والظروف . ولكن عاقبة الصدق في الدار الآخرة لاشك واحدة معينة لااختلاف فيها ولا تبديل . فلا بد للذي آمن بالآخرة وصبت نفسه إلى تلك العاقبة أن ينتهج في كل حال من الاحوال منهجاً عملياً واحداً ، غير مبال بما قد ينفعه من ذلك أو يضره في هذه الدنيا فأنت ترى إنك إذا قصرت نظرك على النتائج الدنيوية العاجلة لايبقى الخير والشر عبارة عن شيء معين محدد ، بل يكون الامر الواحد باعتبار نتائجه المختلفة خيراً في بعض الاحيان وشراً في الاخرى ، ومن ثم تكون أخلاق الذين يصرفون أعمارهم في انتهاز الفرص في هذه الدنيا في قلق دائم وتحول مستمر .

وأما اذا راعيت النتائج والعواقب الأخروية فلا شك ان الخير والشر يصير معيناً محدوداً ، واذن لايسع أحداً ممن يؤمن بالآخرة أن يبدل سيرته ، ويغير طريقته في بعض الاحيان لمجرد خوفه من سوء عاقبة الخير وطمعه في حسن نتائج الشر ..

فائدة الاستخلاف في الأرض

ثم ان تصور المرء بأنه مستخلف في هذه الدنيا لايملك من حقوق التصرف والعمل إلا من حيث أنه خليفة الله[1] ونائب عنه ـ هذا التصور يحدد غاية الحياة الانسانية وهدفها ويوضح مناهجها ويبين سبيلها ، ويقتضي هذا التصور ألا يجوز لانسان أن يستبد بالأمر بازاء ربه ويفلت من طاعته ، أو يعبد غير الله ويذعن للطاغوت ، أو يتكبر على مخلوق الله ويعلو في الأرض كأنه رب العالمين . بل ليس له إلا أن يتبع مرضاة ربه ويستسلم لما أنزل الله تعالى من قانون الأخلاق في كل مايعمله ويتصرف فيه ، وكذلك يدعو هذا التصور الانسان أنه ينبغي له ـ بجانب ـ أن يتجنب في أخلاقه وأعماله كل منهج وكل خطة عملية يشتم منها رائحة البغي والطغيان ، ويحس فيها أثراً لعبادة الله أو العلو والكبرياء الإلهية ، لأن هذه الأمور الثلاثة لاتليق بمقام نيابته عن الله تعالى في الأرض ، بل تعارضه وتنافيه . وبجانب آخر ينبغي له أن يكون تصرفه في مايملكه الله في السموات والأرض ، ومعالجته لما خلق من القوى المختلفة والمواهب والملكات ، وحكمه وسلطته على عباد الله ورعيته ـ يكون كل ذلك موافقاً للخلق وملائماً للسنة التي قد اتخذها مالك هذا العالم في ملكه ورعيته . وذلك بأنه من مقتضيات النيابة والخلافة بالبداهة ألا تكون خطة العمل التي يعمل بها نائب الملك مخالفة للتي يتخذها الملك نفسه ، ولا تكون أخلاق النائب معارضة لأخلاق الملك .

ثم إن هذا التصور يستوجب أن يكون الانسان مأموراً وألا يستعمل ما آتاه الله تعالى من القوى ولا يستخدم ماهيأ الله له من الوسائل والأسباب إلا حسب مايحب الله تعالى ويرضى . وإن شئت قلت أن من موجبات هذا التصور أن يعد من أكبر المجرمين النائب الذي يتصرف في مايملكه الملك بخلاف مايريد الملك ، ويعامل خلقه ورعيته على غير مايحب ، وأن يعد كذلك من أشد المخطئين النائب الذي يلغي حقاً مما آتاه الملك من حقوق التصرف ؛ ولا يستعمله البتة ، أو يعطل قوة مما وهب له الملك من القوى ، ويضيعها في غير جدوى ، أو يتقاعد عن اتخاذ مايسر له الملك من الطرق والوسائل ويقصر في استخدامها تقصيراً ، ثم

---

(١) سنناقش هذه الفكرة للأستاذ المودودي بعد قليل .

يضرب صفحاً عن واجبه الذي قد فرضه عليه الملك وينبذه وراء ظهره ، والى ذلك كله يتحتم من هذا الشعور أن تقوم حياة النوع البشري وشؤونها الاجتماعية على نهج يتيسر فيه لجميع البشر ، أو بعبارة أخرى لجميع خلفاء الله تعالى في هذه المعمورة ، أن يتعاونوا في القيام بما ألقى الله على عواتقهم من الواجبات ، ويتآزروا في أداء ما كتب عليهم من الفرائض والواجبات ، وألا يبقى في نظام المدنية والعمران الانساني شيء ما يحفز أحداً من بني آدم الى أن يعتدي على حق أخيه في الخلافة ، ويدفع طائفة من الناس الى أن تستولي على طائفة أخرى وتسلبها حق نيابتها أو تعوقها عن أن تتمتع به وتمضيه في حياتها ، اللهم إلا اذا كان الانسان أو طائفة من النوع البشري قد انحطت بنفسها من منزلة الخلافة واتخذت سبيل البغي والطغيان على مليكها الحق المقتدر .

هذا هو المنهج الخلقي الذي يتكون للانسان كنتيجة محتومة لتصور الخلافة والنيابة الانسانية . وأما غاية حياة الانسان الخلقية وهدف سعيه وعمله في هذه الدنيا فإنه كذلك يتعين من ذلك التصور بالدلالة المنطقية الواضحة ، وذلك إنه لما كان الانسان مأموراً في هذه الأرض من لدن ربه ، ونائباً عنه ، فإن ذلك يقتضي ولا بُدّ ألا تكون لحياة الانسان غاية سوى أن يُمضيَ حكمه وينفذ أمره في هذه المعمورة الأرضية ، ثم أن يسعى الانسان لتنفيذ حكم الله تعالى وقانونه في ما قد فوضه الله تعالى الى الانسان من تدبير الأمر في أرضه ، ويقيم في هذه الدنيا نظام الأمن والصلاح والعدل وفْقاً لمشيئة ربه ، ويقضي على كل ما يأتي به شياطين الجن والأنس من ضُروب الخبث وأنواع الفساد في هذا النظام ، ويستأصل شأفته ، وأن ينشىء الفضائل ويسقي غرس الحسنات التي يحبها الله تعالى ويريد أن يرى أرضه عامرة بها وأهليها من رعيته متحلين بحليتها ـ فكل ذلك هو الغاية التي ينشدها كل إنسان استيقظ فيه الشعور بكونه خليفة الله ونائبه في الأرض ، ويخلص لها مساعيه ويحصر فيها جدّه وعمله . هذه الغاية لاتقف على أن ترفض وتبطل الغايات والأهداف التي قد قررها لحياتهم محبو اللذة والمتعة وعشاق المادة وعُبّاد الوطنية ومن على شاكلتهم من المولعين بكل عبث وفضول ، بل ترفض كذلك رفضاً باتاً الغايات المهملة التي قد وضعها

أتباع النحل ورجال الأديان متأثرين بما قد سيطر وأخذ بمجامع فكرهم من تصور مخطىء للروحانية . وبين هذين الطرفين المتناقضين البعيدين عن القصد والاعتدال ، يضع تصور الخلافة والنيابة بين يدي الانسان من الغاية العليا والهدف الأسمى ماينشط جميع قواه للعمل ويستحث جميع مواهبه وغاياته للسعي والكفاح في كل حلبة من حلبات الحياة ، ويستخدمها في إقامة أصلح نظام للمدنية والثقافة ، وترقيته وتعميمه .

الخاتمة :

أما بعد ، فهذه هي الأسس التي قد زودنا بها الإسلام لنرفع عليها بنيان الأخلاق الانسانية . وليكن على ذكر منكم أن الإسلام ليس بملك لأمة بعينها من الأمم ، أو طائفة مخصوصة من طوائف البشر ، بل هو إرث عام تشترك فيه الانسانية جمعاء ؛ وأنه لاغاية أمامه إلا فلاح العالم كله ونجاح البشر جميعهم . فمن كان يريد فلاحه وسعادته وسعادة بني نوعه جميعاً فهو حري بأن يتأمل ويفكر : أي الأسس أقوى وأقوم لانشاء الأخلاق الانسانية ، وتنميتها وترقيتها ـ الأسس التي يهيئها لنا الاسلام ويدعونا إليها ، أم التي تأتينا بها الديانات الروحانية والمذاهب الفلسفية ؟ واذا اطمأنت نفسه وشهد قلبه على أن الأسس الإسلامية هي أصح وأقوم ، وأكفل للوصول بالانسان الى الهدف المنشود والغاية المطلوبة ، فإذن لاتمنعه عصبية من العصبيات الجاهلية من قبولها والتزامها . (ا . ه)

مناقشة رأي المودودي :

إن شرح المودودي للنظرية الإسلامية مثار الاعجاب والتقدير ومهما كان من قيمة رأي الأستاذ الكبير أبي الاعلى المودودي فإننا لانوافقه على قوله الآتي الذي كرره في مناسبات كثيرة :

« ... وقد بعث الله الانسان في هذه الدنيا نائباً عنه وجعله في الأرض خليفة ... ص ٤٧ »

وقد قال المودودي ماقاله استناداً الى الآية الكريمة الآتية : « وإذ قال ربك للملائكة

إني جاعل في الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم مالا تعلمون .. »

إن تفسير الأستاذ المودودي الخليفة هنا بخليفة الله ونائبه خطأ كبير ، ولو قال به بعض المفسرين ، إنما هو – أي الانسان – قد خلف المخلوقات التي كانت قبل آدم عليه السلام ثم اضمحلت وخلق مكانها البشر . والسبب في إنكارنا هذا التفسير مايلي :

١ – إن الانسان مهما أوتي من السمو والرفعة لايستطيع أن يمثل هذه الخلافة .

٢ – إن الانسان معرض للخطأ ، وقابل للضلال ، فبامم من يكون قد فعل ذلك إذا اعتبرناه خليفة الله ؟!

٣ – سياق الآية ينافي هذا التفسير ، فإن الملائكة لو فهموا أن الانسان خليفة الله لما تجرؤوا ولا توهموا أن خليفة الله سيفسد في الأرض ويسفك الدماء .

وقول القرآن على لسان الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » يدل على خلافة من كانوا قبل آدم الذين أفسدوا في الأرض، فخشيت الملائكة أن يكون الخليفة آدم ومن بعده من البشر مثل من سبقهم فساداً وسفكاً للدماء .

٤ – ويشير الى ماذكرنا قوله عليه عليــه الصلاة والسلام في أثناء حديث : (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه،فلا تجعل لهم ذمة الله ، ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ..)

إن القول بأن الانسان خليفة الله في الأرض عقيدة نصرانية حيث يدعي رجال الكنيسة أنهم خلفاء الله في الأرض بشهادة إنجيل متى القائل : « ١٨ – ١٨ » الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ماتحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء .

كما جاء في انجيل متى (١٦ – ١٠) يخاطب الرب بطرس على حد عقيدة النصارى :

« وأعطيك مفاتح ملكوت السموات ، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا في السموات ، وكل ماتحله على الأرض يكون محلولاً في السموات » .

وكان لهذه العقيدة أثرها الفعال في استبداد الظالمين والمستبدين مادامت النصوص تؤيدهم بجميع مايعملون . كان سنت بول يقول في أول عهد النصرانية : « إن السلطات القائمة إنما نظمتها يد الله ، فمن قام في وجه السلطة ، إنما يقاوم أمراً أراده الله » وكان القديس سنت بول يقول أعجب من ذلك : « إن على الكنيسة أن تخدم تحت تاج ملوك الأرض ! » « مامن سلطة إلا وتصدر عن الله » وكان هذا القديس يردد هذا النداء : « أنصتي يامالك الأرض لن أحول مطلقاً دون سلطانك في العالم[1] . »

وهذا المبدأ يتنافى مع أبسط مبادىء الإسلام الذي يدعو للوقوف في وجه الحكام الظالمين الغاشمين والضرب عليهم بيد من حديد معتبراً سلطتهم الاستبدادية مغايرة لشريعة السماء الداعية الى العدل والرحمة .

وقد كان لهذه التشريعات النصرانية السبب الوحيد في محاربة رجال الاصلاح للدين النصراني واعتباره « أفيون الشعوب » مما أدى إلى إلحاد الكثيرين .

لله ما أعظم الفرق بين مبادىء الإسلام القائلة (كما جاء في القرآن) «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . »

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . »

---

(١) مفهوم الدولة للدكتور مصطفى البارودي ص ١٠٣ .

وكما جاء في الأحاديث :

- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
- أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر .

وبين مبادىء النصرانية التي تنادي :

- اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله (الانجيل)
- « إن الأمير خليفة الله في أرضه ، وهو يحتفظ بهذه الصفة ولو تغير سلوكه » فالسلطة التي هي علاج للسقوط قد تكون جزاء للخطيئة والأمير السيىء قد يكون هو أيضاً عقوبة من الله للشعب على أفعاله . وهذا القديس غروار الكبير يدعو إلى طاعة الأمير ولو كان سيئاً . طاعة سلبية من غير نقد ولا همس في احترام صامت للحاكمين ولو كانوا حقاً خاطئين . لأن على الذي يحقر السلطة أن يخشى عقاب الله الذي رفع الحاكمين فوق الأفراد . والحاكمون لا يسألون عن أعمالهم إلا أمام الله[1] .

وقبل أن ننهي الكلام على النظرية الإسلامية الخلقية ، لا بد لنا من تنبيه الأذهان إلى ان من مزاياها الاعلان عن قدسية الأخلاق وثباتها في الاسلام ، بعكس النظريات الاخرى التي تنادي بتغير الاخلاق باختلاف الازمنة والامكنة : قال الفيلسوف باسقال : « فضيلة امام جبال البيرنه رذيلة وراءها ! » وهذا صحيح بسبب وضع الاخلاق من قبل أشخاص وبيئات مختلفة نتيجة الحرمان من أخلاق إلهية .

وقد نتج عن هذا الاعتقاد الغربي بالأخلاق استهتار الناس بها واعتبارها من وضع البيئة واصطلاحهـــا ، ما دامت بتطور دائم ... فأدى هذا الرأي إلى السخرية بالخلق والاستهانة فيه ، وإلى اختلاف البشر ونزاعهم بسبب اختلاف سلوكهم وعاداتهم .

بينما تعلن النظرية الإسلامية حرمة الاخلاق وقدسيتها ، فهي دستور إلهي لا يتبدل ولا يتطرق إليه الباطل مما يؤدي إلى احترام هذه الاخلاق وشمولها الانسانية جمعاء باعتبارها أسرة واحدة .

---

(١) مفهوم الدولة (١٠٤) .

الخاتمة :

لقد رأينا كيف تحطمت النظريات الأخلاقية المادية وكيف انهارت أمام ضربات العقل ومنطق الحياة الصحيح ، ولكنها على الرغم من وضوح ضلالها لا تزال وياللأسف تعيث في الارض الفساد في هذا العالم الحاضر ، وتسعى لتقوده إلى الهاوية .

إن هذه النظريات لا تقل هدماً من معاول الهدامين ، وقد جعلت من الحياة ماخوراً للذة وجعلت من الانسان حيواناً مسعوراً همه فرجه وبطنه !

وإذا بقي الغرب صامداً بعض الصمود على الرغم من هذه النظريات التي تنخر في كيانه ، فلأنه يحمل بعدُ قليلاً من قوة المناعة اكتسبها على حساب امتصاص دمائنا واستثمار خيراتنا . ولكن مصيره المحتوم هو الفناء الاكيد كما تنبأ بذلك المفكرون الغربيون (١) .

إن هذا الشقاء الذي عم العالم هو نتيجة هذه الفلسفات المادية الفعالة المضلة التي درسناها وأثبتنا زيفها وزيفانها وخطرها ...

والعجيب في أمر هذه النظريات انها بدأت توجه كثيراً من الجيل الجديد المسلم متأثراً بالغرب عن طريق الدراسة القذرة التي لقنته المدرسة إياها دون حيطة واحتراز ودون ان نطلعه على النظرية الاسلامية الخلقية التي أتينا على موجزها في هذه الرسالة والتي جهلها الجيل الجديد فخسر خسراناً مبيناً .

وقبله خسر العالم اقتطاف ثمرات هذه النظرية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فهي تنزيل من رب العالمين . وكان من نتيجة هذه الخسارة ما أصاب الانسانية من ويلات النظريات المادية الاخلاقية . قال الله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ! »

والعجيب في أمر العرب ، انهم يعلنون سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، بينما هم يرتمون في احضان نظريات الغرب الخلقية التي يتخبط بها منذ مئات الاعوام ،

---

(١) راجع كتابنا هل نحن بحاجة الى نظام عقائدي ص (٢) .

تاركين مبادئهم الخلقية القويمة فإذا لم يكن صنيعهم هذا انحيازاً للغرب وتبعية له ، فما الانحياز والتبعية ؟!

إن حرمان الطالب من الروح والثقافة الاسلامية ثم اعطاءه زاداً من النظريات الاخلاقية الغربية المضطربة تسري في نفسه دون ان تجد فيه مناعة قوية ، كل ذلك يؤدي إلى اضطراب في نفسه وفوضى في شخصه وفساداً في سلوكه .

إن هذه النظريات لا تبقى جامدة في الذهن شأن كل ثقافة ، بل تتحول إلى قوة وحركة تسير حاملها ، ومن هنا جاءت ضرورة توجيه المناهج المدرسية ومراقبة ما يدرسه الجيل الجديد قبل ان يصبح حرباً على تقاليدنا وينتقل بروحه وفكره – إن لم ينتقل بجسمه كما انتقل الكثيرون !! – إلى البيئة التي تلقى ثقافتها وآراءها ، ويغدو جسمه معنا وأفكاره وميوله في الغرب ، فيعيش في عواطف القوم وفي تفكيرهم وتوجيههم . وما يحدث في العراق الشقيق أعظم الدليل . وفي ذلك خسارة فادحة لا يشعر بها الكثيرون وفيه الخطر كل الخطر . وقد ذكر القرآن الكريم مبلغ تأثير الثقافة بالأمة « وقد نُزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا !! » (٤ – ٣٩) .

وقال المربي الأمريكي الشهير (جون دبوى) « الفلسفة التي تتبعها أمة في تربية أفرادها ، هي التي تحدد مبلغ نجاحها وفشلها . هذه الفلسفة تنعكس منها حضارة الأمة . »

والغربيون يدركون كل هذا ، يدركون أثر الثقافة في التوجيه ، لذا يفرضون لغتهم وآدابهم ونظرياتهم وفلسفتهم في مدارس البلاد التي يحتلونها ، أو في المدارس الأجنبية والتبشيرية التي يؤسسونها وفي الكتب والمجلات التي ينشروها ، باذلين في ذلك الأموال الطائلة .

إن هذا كله يحقق لهم ما يصبون إليه من غرس محبتهم والرغبة فيهم . وهذا هو الغزو الثقافي والفتح اللاشعوري : الفتح المبين لو كان قومي يعلمون ! (١)

---

(١) راجع كتابنا السابق ص ٩ .

وقد كان بودي أن أسبق مباحث النظريات الخلقية الغربية بالنظرية الخلقية الاسلامية لأحقق المناعة القوية في النشء قبل تزويدهم بالنظرية الغربية ، خشية أن تملأ فراغ نفوسهم ، لو لا انني لم أضع هذه الرسالة للطلاب فقط وإنما قصدت منها ان اعرض لهذه النظريات بالنقد والتمحيص وأشيد على أنقاضها النظرية الخلقية الاسلامية ، ولو كان لي من الأمر شيء لأمرت بتحريم تدريس هذه النظريات التي يسمونها أخلاقية ، واسميها اللا اخلاقية بسبب افسادها لضمائر الناس واغرائها لهم بتقديس الغرب بالارتماء في احضان الرذيلة والشهوات باسم الأخلاق ! فنحن بحاجة إلى صناعة الغرب وآلاته واسلحته ، لا إلى أخلاقه وفلسفته !

إن الأدباء والمدرسين والمصلحين الاسلاميين يحملون تبعة توجيه الجيل الجديد ، كما يحملون تبعة توجيه قافلة الانسانية الضالة ، فهم حملة رسالة سماوية ثابتة الأركان قوية البنيان يحتم الواجب عليهم تبليغها للناس، وخاصة الغربيين الذين خسروا بحرمانهم منها خيراً كثير ! وعرضوا حياتهم لأفدح الأخطار ، وسوف يأتي يوم قريب جداً يسقطون فيه بالهاوية إذا استمروا يحتكون إلى نظرياتهم الخلقية الهدامة فيبيدون أنفسهم ويبيدون العالم أجمع !

فعلى المصلحين الاسلاميين ما دام بيدهم مشعل الرسالة السماوية ، المسارعة إلى هداية الناس وانقاذهم من الظلمات إلى النور .

وقبل ختام كلمتي فإنني أهيب بأساتذة الفلسفة والأخلاق ألا ينقلوا هذه النظريات الأخلاقية الغربية إلى النشء نقلاً كالببغاوات وأستصرخ ضمائرهم ليدركوا ماهم فاعلون ، فإن من يتعلم على أيديهم هو المستقبل بنفسه وإن من يصغي إليهم هو التاريخ بعينه وأن من يربونه الأمة بأسرها !

PB-30400-SB
5-20
C

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02771 8413
BJ37 .I7
Hiwar bayna al-falasifah hawla